قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

محمد عمارة

دار الشروق

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

محمد عمارة

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

دار الشروق

المحتويات

تقديم

ليست الريادة هى المعيار الوحيد الذى يكسب المفكر والمصلح مكانًا عاليًا وهامًا فى حركة تطور المجتمع الذى يعيش فيه، وإن تكن لها ميزاتها ووزنها وتكاليفها التى تضفى على أصحابها الكثير من المجد والتقدير.

وفيما يتعلق بارتياد المفكرين والمصلحين فى شرقنا العربى الإسلامى، فى العصر الحديث، لميدان الدعوة إلى تحرير المرأة المسلمة والشرقية، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتأريخ لذلك الحدث الذى حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور «المملوكية ـ العثمانية» المظلمة إلى أعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التى أفاءها على الشرق عصر التنوير الذى بدأته مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨م)، وقادت الشرق إلى ساحاته منذ ذلك التاريخ.

فهناك من يرى أن فضل الريادة فى هذه الدعوة، إلى تحرير المرأة، معقود لقاسم أمين، وأن «أول صيحة لهذا التحرير هى

صيحة قاسم أمين، فى كتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)»[1] ومؤدى هذا الرأى أن الدعوة إلى تحرير المرأة لم تعرفها مجتمعاتنا الشرقية، ومصر، بالذات قبل تاريخ صدور كتاب (تحرير المرأة) فى سنة ١٨٩٩م.

وهناك من يرى أن الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين فى سلوك هذه السبيل، وأن الآستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة، وأن صحيفة (الجوائب) قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ـ ١٨٨٨م) إلى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين.. ويعللون سبق الأتراك إلى هذا الميدان «بكثرة اختلاطهم بالأجانب، وسبقهم فى الاطلاع على أسباب التمدن الحديث»[2].

وإذا ما كان السؤال: أيهما أسبق فى الدعوة لتحرير المرأة: أحمد فارس الشدياق، أم قاسم أمين؟ فإن البداهة تعطى السبق للشدياق.. فهو قد عاش ومات قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحريرها، وصحيفة (الجوائب) قد صدرت (١٨٦٠م ـ ١٢٧٧هـ) أى قبل مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات.

ولكننا لن نعثر على الحقيقة فى قضية الريادة لهذه الدعوة إذا

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص. ١٥٢، طبعة القاهرة، مطبعة مصر ـ بدون تاريخ.

(٢) «الهلال» تأبين قاسم أمين. انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ». طبعة الإسكندرية، سنة ١٩١٣م.

نحن وقفنا عند هذه الحدود التى يرسمها أصحاب هذا الخلاف . . ذلك أن هناك وقائع أخرى، نراها هامة وضرورية لمن يريد الوصول إلى كلمة سواء فى هذا الموضوع.

فأولا: كانت مصر، فى ظل الدولة المدنية الحديثة التى قاد إنشاءها محمد على، أسبق إلى حركة التمدن الحديث بكل مناحيها وأشكالها - ومنها الدعوة لتحرير المرأة - من المجتمع العثمانى، ولقد بدأت انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملها وتحدث تأثيراتها فى الدولة العثمانية، ذاتها، حتى قيل: «إن النهضة العثمانية، بكل فروعها، مسبوقة فى مصر، ومقتبسة عنها[1] . . ». فالريادة هنا لمصر لا للأتراك العثمانيين . . وذلك إذا أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول إلى عصر النهضة والتنوير على وجه الإجمال.

وثانيا: إذا نحن أردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية التى قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم، وهى تلك التى أنشأها محمد على للتمريض، وغيره من الفنون . . وهو تاريخ سابق على صدور (الجوائب) فى ستينيات ذلك القرن بثلاثة عقود تقريبا.

وإذا نحن نقبنا فى الفكر العصرى الذى شهدته مصر فى ظل تلك الدولة الحديثة ومجتمعها، وجدنا الدعوة، غير المباشرة، إلى تحرير المرأة وتعليمها معلنة فى كتاب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ -

---

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، ص ٣٥٢، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٥.

١٨٧٣م) «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» وتاريخ تأليفه سابق على أكتوبر سنة ١٨٣٠م، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤م[١] وهو قد ترجم إلى التركية فى ذلك التاريخ.

كما نجد الدعوة إلى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل فى التعليم تظهر فى مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التى كان الطهطاوى عضواً بها، فتقترح هذه اللجنة فى سنة ١٨٣٦م «العمل لتعليم البنات فى مصر» تعليماً يتخطى حدود الضرورات العملية التى كانت تحكم مناهج المدارس التى كانت قائمة للبنات فى ذلك التاريخ.

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الأتراك فى الدعوة إلى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها.. ويسبق الطهطاوى الشدياق، وغيره فى ارتياد هذا الميدان.. ثم يأتى كتابه (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذى كتبه فى بداية السبعينيات بتكليف من (ديوان المدارس) كى يدرس فى مدارس البنات. يأتى حاويًا لكثير من الآراء ووجهات النظر التى يمثل مجموعها أول بناء فكرى شبه متكامل يكرسه مفكر عربى لقضية تحرير المرأة فى عصرنا الحديث.

تلك هى قضية الريادة فى هذا الميدان.. فهى لمصر محمد على، وليست لتركيا آل عثمان.. وهى للطهطاوى، وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين.

* * *

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى «دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة»، جـ١ ص ٧٨، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣.

ولكن . . تبقى لقاسم أمين ، فى هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من عداه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم فى هذه السبيل . . فكل من عدا قاسم أمين كان حديثهم عن تحرير المرأة والنهوض بها أمرًا من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وآثار . . أما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذى وهب كل جهوده وجميع آثاره ـ تقريبًا ـ لهذه الدعوة ، حتى لقد ذهب علمًا عليها ورمزًا لها ، تتداعى قضاياها وحجج أصحابها إذا ذكر اسمه فى أى وقت وأى مجال .

بل إن كل الجوانب الأخرى التى مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفكر قاسم أمين وموقفه الإصلاحى ، وهى الجوانب التى ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ، إنما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير .

- فمنهجه الاجتماعى فى البحث . . ومذهبه فى رؤية التاريخ وتطور المجتمعات .
- وانتماؤه الاجتماعى والفكرى . . والمجتمع الذى بشر به . .
- وموقفه من «التمدن الإسلامى» وفهمه لهذا التمدن .
- ودعوته فى الإصلاح الاجتماعى . . . والتربوى .
- وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة . . ومزاجه المعتدل فى الوطنية . . وتقييمه لتجربة مصر الحديثة .

كل هذه القسمات ، وغيرها ، فى فكر قاسم أمين ومذهبه

الإصلاحى، قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التى نذر نفسه لها.. وهى قضية المرأة الشرقية والمسلمة، والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى إلى أنوار تحضر العصر الحديث.

فإذا لم تكن ريادته ريادة سبق.. وإذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ.. فإن له الريادة فى تكريس كل جهده الفكرى لهذه القضية قبل غيرها، بل ودون غيرها - تقريبًا - من قضايا الإصلاح.

وإذا كانت هذه الدراسة التى نقدمها عن قاسم أمين ستضع، من خلال فصولها القادمة، فكر القارئ والباحث على حقائق وقسمات فى فكره لم يلتفت إليها كثير من دارسيه، فإن الفضل فى ذلك - بعد المنهج العلمى الذى نتناول به دراسة فكره - يعود إلى مجىء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة، خصوصًا أنها الدراسة الأولى التى تهتم كثيرًا برصد تطوره الفكرى، بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه «المصريون» الذى رد به على الدوق الفرنسى «داركور»، والذى كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين.

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيدًا عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤ م حتى تاريخ تقديمنا له بالعربية، ضمن أعماله الكاملة سنة ١٩٧٦م.. ومن هنا كان الجديد الذى تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين، مرتبطًا ونابعًا من الجديد الذى قدمته طبعتنا المحققة لأعماله الكاملة منذ خمس سنوات.

فاليوم قد أتيحت لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعماله الكاملة للمرة الأولى.

واليوم قد أتيحت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه «المصريون» لأول مرة.

واليوم تتاح لقراء العربية إمكانية رصد جوانب فكره وقسمات مذهبه الإصلاحى.

وهى الأمور التى نرجو أن يكون قد حالفنا فى إنجازها التوفيق.

الدكتور

محمد عمارة

بطاقة حياة

[إن اللذة التى تجعل للحياة قيمة، ليست حيازة الذهب، ولا شرف النسب، ولا علو المنصب، ولا شيئًا من الأشياء التى تجرى وراءها الناس عادة.. وإنما هى أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم..].

قاسم أمين

فى هذه «البطاقة» نكثف المعالم الهامة والبارزة، فى حياة قاسم أمين، وذلك حتى تكون سطورها «شريطًا» يعرض، فى إيجاز شديد، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها فى حياته الخاصة والعامة.. فهى ليست «ترجمة» - بالمعنى المتعارف عليه - لحياته، وإنما هى «بطاقة» لهذه الحياة تكثف معالمها البارزة فى عدد من النقاط:

- ١ -

* ولد قاسم أمين لأب تركى عثمانى وأم مصرية من صعيد مصر.. فوالده محمد بك أمين، كان قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها، الوالى التركى على إقليم «كردستان» إحدى ولايات الدولة العثمانية فى ذلك التاريخ.

وعندما ثارت «كردستان» ضد الدولة العثمانية، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الآستانة، كان واليها محمد بك أمين فى الآستانة، فظل بها، حتى منحته الدولة، عوضًا عن إمارته، إقطاعات فى مصر، بإقليم «البحيرة»، قرب مدينة «دمنهور» فنشأت علاقته بمصر، وقرر الإقامة بها، وكان ذلك فى بداية حكم الخديو إسماعيل.

* وفى مصر تزوج محمد بك أمين إحدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر، هى ابنة أحمد بك خطاب، شقيق إبراهيم خطاب باشا.

* وفى مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى، على عهد الخديو إسماعيل، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة «أميرالاى»، وشغل مركز قائد سلاح «المرابطين».

* وهناك من يرجح أن تاريخ ميلاد قاسم أمين ـ وهو الابن الأكبر لهذه الأسرة ـ كان فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣م[1]. وهناك خلاف فى محل ميلاده.. هل هو الإسكندرية، أم ضاحية «طرة» القريبة من القاهرة؟ ولعل الأم كانت تقيم بالإسكندرية، على حين كان عمل الأب فى «طرة»، ومن هنا نشأت أسباب اللبس والاختلاف.

* وفى الإسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته فى التعليم.. فلقد دخل مدرسة «رأس التين» الابتدائية، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الأرستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء.

وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الإسكندرية، واستقر بها المقام فى القاهرة، وسكنت فى حى

(١) يخطئ كل من: سركيس فى «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ومحمد رضا كحالة فى «معجم المؤلفين» و«الموسوعة العربية الميسرة» فى تحديد سنة ميلاده، فيجعلونها سنة ١٨٦٥م.. ولكن الزركلى فى «الأعلام»، وكذلك كتاب ترجمته وأصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣م.

الأرستقراطية القاهرية يومئذ، حى «الحلمية» . . والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية ـ الخديوية ـ والمدارس التجهيزية فى ذلك العصر تقابل المدارس الثانوية هذه الأيام . . وفى هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسى .

* وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والإدارة ـ وهى مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق فى غياب الجامعات ـ ومنها حصل على "الليسانس"، وهو فى العشرين من عمره، ١٨٨١م . . وكان أول خريجيها فى ذلك العام .

* وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغانى ومدرسته الفكرية التى ازدهرت بمصر فى ذلك التاريخ .

ـ ٢ ـ

* اتجه قاسم أمين، بعد تخرجه وحصوله على الليسانس، إلى العمل بالمحاماة . . وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا ـ الذى تولى فيما بعد رئاسة الوزارة فى ظل الاحتلال الإنجليزى لمصر ـ فالتحق قاسم بالعمل فى مكتب مصطفى فهمى للمحاماة .

* ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمى باشا للمحاماة . . ففى نفس العام ـ ١٨٨١م ـ سافر فى بعثة

دراسية إلى فرنسا، وهناك انتظم فى جامعة «مونبلييه» . . وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق فى سنة ١٨٨٥م.

* وأثناء مقام قاسم أمين بباريس، حدثت بمصر أحداث الثورة العرابية التى قادها وشارك فيها عديد من تلامذة جمال الدين الأفغانى، والحزب الوطنى الذى كونه بمصر سرًا فى أواخر السبعينيات . . ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الإنجليزى المسلح، واحتلال إنجلترا لمصر، ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد.

* ثم استقر المقام بالأفغانى - بعد فك إقامته الجبرية بالهند - وكذلك بمحمد عبده - بعد نفيه من مصر - استقر بهما المقام بباريس منذ سنة ١٨٨٣م، وهناك أصدرا مجلة «العروة الوثقى» لسان حال لتنظيم «العروة الوثقى» السرى الذى انتشرت فروعه من مصر إلى الهند، والذى قام أساسًا لمناهضة الزحف الإنجليزى على الشرق، ولمناوأة احتلالهم مصر بالذات.

وفى تلك الفترة عادت صلات قاسم أمين مع الأفغانى ومدرسته، فكان «المترجم» الخاص بالإمام محمد عبده فى باريس.

* وفى فرنسا قرأ قاسم لمفكرى أوروبا الكبار، ومن بين الذين قرأهم: نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) وداروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م).

وفى فرنسا كذلك حاول قاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسى وإقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعى . . غير أن طبيعته الشرقية الخجولة وسمة الانعزالية التى ميزت شخصيته لم تمكنه من الذهاب بعيداً فى هذا المضمار .

فهناك صداقة ، بل وحب ، قد نما بينه وبين «سلافا» تلك الفتاة الفرنسية التى زاملته فى الدراسة بجامعة مونبلييه . . ولكن هذه الصداقة وذلك الحب قد ظل «رومانسيًا» ، وكانت أهم آثاره تلك المشاعر النبيلة التى بدأت تتولد فى نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك الحين ، وتلك الأحلام الوردية التى بدأت وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور الوحى والحافز والمساعد فى حياة الرجل ، ومن ثم المجتمع ، بدلاً من بقائها قيداً يشد خطو الرجل والأمة إلى الوراء . . لقد بدأ يحلم بالإنسانة التى تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل !

كما وقف هذا الخجل الشرقى وتلك المحافظة والانعزالية ، اللذان تحلت بهما طبيعة قاسم أمين ، حائلاً بينه وبين الانسجام مع مرح ذلك المجتمع ، وما كان لرجاله بنسائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا إلى باريس فى ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب إلى باريس بعد رحلة الطهطاوى إليها بخمسة وخمسين عامًا ، والثانى كان شيخًا أزهريًا ، وواعظًا بالجيش ، وإمام الدين للبعثة الدراسية التى ذهبت تتعلم هناك . . ومع فارق

الزمن وفارق الثقافة والبيئة . . فقد كان الطهطاوى أكثر تقبلاً وتفهمًا لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية، وأقل محافظة فى تقييمه لحفلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من قاسم أمين.

فالطهطاوى ينفى أن يكون سفور المرأة الفرنسية مفضيًا، بالتبعية والحتم، إلى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف . . فالفرنسيون يحافظون ـ مثلنا ـ على «العرض» ويسمونه شرفًا، بل «ويقسمون به عند المهمات، وإذا عاهدوا عليه، وفوا بعهودهم!» . . «هم مثل العرب فى هذا الأمر . . » أما حدوث «اللخبطة» ـ كما يقول ـ بالنسبة لعفة النساء، فليس مبعثه السفور أو الاختلاط، بل ولا شيوع العشق فى المجتمع الفرنسى، لأن منشأ «العفة» أو «اللخبطة» إنما يعود إلى «التربية الجيدة أو الخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة، والالتئام بين الزوجين» . . ومن ثم فإن الفرنسيين «تقل فيهم دناءة النفس» فيما يتعلق بعلاقات الرجال مع النساء![1].

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسى.

أما قاسم أمين فإنه كان أكثر تحفظًا فى التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين، فهو يكتب عنه فيقول: « . . . يضم المجتمع الأوروبى الرجال والنساء دائمًا، فيسهل الاتصال بينهم، وتنشأ

---

(١) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى»، جـ ١ ص ١٠٩، ١١٠.

فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب، وهذا الاختلاط بين الجنسين فى الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة، فالسحر الذى تشيعه المرأة فى كل مكان توجد فيه، شىء ممتع ونفاذ كعطر الزهور. وفى مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائمًا بالمرح، وغالبًا ما يتودد للغير، ويخرج فى النهاية مفعم القلب بالرضا!».

ثم يستطرد متحدثًا عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول: «وقد أتيح لى تقييم هذا السحر الفريد، وكان شأنى شأن الآخرين فى الإحساس بقدره، وخاصة فى وجود امرأة تجمع حصافة الفكر إلى جمال الجسد. وقد رمت بى طبيعتى الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة، غير أن هذا لم يقلل من حبى لهذه اللقاءات الشيقة التى يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به!..»(١).

* وفى صيف سنة ١٨٨٥م عاد قاسم أمين إلى القاهرة، وذلك بعد أن عمل هناك مع أستاذه «لرنود» ـ عقب التخرج ـ عدة شهور.

ـ ٣ ـ

* ويوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثانى والعشرين ـ أول ديسمبر سنة ١٨٨٥م ـ صدر قرار تعيينه بالقضاء، فى النيابة

---

(١) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين». دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، جـ١، ص ٢٩٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٦م.

المختلطة . . فبدأ طريقه لتحقيق طموحه، وخاصة ما يتعلق منه بإثبات جدارة المصرى وندّيته للأوروبى فى تولى الوظائف العامة والنهوض بأعبائها . . وبوجه أخص فى حقل مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بمصر، أجانب ومصريين على حد سواء.

* وبعد شهور من عودة قاسم إلى أرض الوطن توفى والده محمد بك أمين.

* وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧م نقل من النيابة المختلطة إلى قسم قضايا الحكومة.

* وفى يونيو سنة ١٨٨٩م رقى إلى منصب رئيس نيابة «بنى سويف»، بصعيد مصر . . وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وآراءه فى فلسفة العقاب ودوره فى الإصلاح الاجتماعى، فلقد وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الإدارة الحكومية ظلماً، فى سجن «بنى سويف»، ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم!

* وفى سنة ١٨٩١م انتقل رئيساً لنيابة «طنطا» . . حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف إزاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطنية والوفاء لمدرسة الأفغانى التى انتسب إلى فكرها ومنح رجالها الحب والإعجاب منذ عهد صباه.

فلقد وقع عبد الله نديم (١٨٤٣ ـ ١٨٩٦م) ـ أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها ـ فى قبضة الشرطة، وذلك بعد اختفاء

أسطورى دام تسع سنوات . . وجيء به إلى رئيس النيابة قاسم أمين؟! فأكرم لقاءه، وأعطاه مالاً من عنده، وهيأ له فى محبسه أقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة . . ثم قرر أن يقوم بالسعى لدى المسئولين فى العاصمة كى يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه، فسافر إلى القاهرة يلتمس له العفو . . وبعد حملة صحفية، تبنت هذا المطلب، قررت الوزارة العفو عن عبد الله نديم مع إبعاده إلى الشام فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١م، بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيهًا!

ونفس الصنيع كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عليهم فى المظاهرات! بل كان يخفى بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات!

* وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢م عُين قاسم أمين نائب قاض فى محكمة الاستئناف . . ثم رقى بعد عامين من ذلك التاريخ إلى منصب مستشار، وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره .

* ولقد عرفت عنه، طوال مدة عمله بالقضاء، دعوته إلى جعل القضاء المصرى والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضى والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر ـ باستثناء أحوالهم الشخصية ـ وذلك حتى تزول الازدواجية القضائية التى فرضتها على مصر امتيازات الأجانب ونفوذ الاستعمار .

* وخارج نطاق العمل القضائى امتد نشاط قاسم أمين . . فكتب فى صحيفة «المؤيد» عدداً من المقالات دون توقيع . . وأصدر كتابه «المصريون» ـ بالفرنسية ـ سنة ١٨٩٤م . . يرد به هجوم الدوق الفرنسى «داركور» على مصر والمصريين . . كما أصدر «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م، و«المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠م .

كذلك شارك فى نشاط «الجمعية الخيرية الإسلامية»، وكانت تنشىء المدارس للفقراء، وتنهض بضروب من الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين .

وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦م تولى سكرتارية الاجتماع الذى عقد بمنزل سعد زغلول باشا، والذى صدر عنه البيان الشهير الموجه للأمة يدعوها للإسهام فى إنشاء الجامعة الأهلية المصرية . . وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنة التى نيط بها أمر الدعوة لإنشاء الجامعة، بعد تعيينه ناظراً (وزيراً) للمعارف، تولى رئاسة اللجنة بدلاً منه قاسم أمين . . وكانت آخر أعماله العامة ذلك الخطاب الذى ألقاه «بالمنوفية»، بمنزل حسن زايد، عن الجامعة والتعليم الجامعى المرجو لمصر والمصريين . . فلقد ألقى خطابه فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٨، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك التاريخ بأسبوع، أى فى ليلة ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨م . . وكانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التى نهض فى سبيل قيامها بدور عظيم .

ـ ٤ ـ

❋ أما منزل قاسم أمين وحياته الأسرية فلقد كانا متسقين مع مزاجه الهادئ وروحه الفنانة وإحساسه الرقيق . . فهو قد تزوج فى سنة ١٨٩٤م من زينب، ابنة أمير البحر التركى أمين توفيق . . وكان صديقًا لوالد قاسم أمين . . وكانت قد أشرفت على تربية زوجته هذه، فى طفولتها وصباها، مربية إنجليزية . . وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يوميًا، وبشكل منتظم من الخامسة إلى السابعة مساء!

ولقد أنجب بنتيه : زينب، التى أحضر لها مربية فرنسية . . وجلسن، التى أحضر لها مربية إنجليزية .

❋ أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف . . ومع كتبه كان يقضى، يوميًا وبانتظام، ثلاث ساعات من السابعة حتى العاشرة مساء!

❋ أما إجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك .

❋ ❋ ❋

هكذا كانت حياة قاسم أمين، وكانت شخصيته . . فنان وأديب نحا نحو الإصلاح الاجتماعى . . ومفكر يحترم رأيه، ويدافع عنه بإصرار، ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته إلى تحريرها، بدءًا من تحريم

دخوله إلى قصر الخديو بعد إصدار «تحرير المرأة»، إلى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التى كيلت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب.. إلى سعى فئات وأفراد من العامة والبلهاء والمتعصبين إلى إزعاج حياته الأسرية الهادئة، ظنًا منهم أن دعوته إلى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب إلى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط!

ومع كل ذلك، ومثله كثير، عاش قاسم عمره القصير ـ بمقاييس السنوات ـ بروح الفنان، فأعطاه عمقًا ومنحه أبعادًا تخطت به حدود الزمن والسنوات.

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل: لقد كانت «روح قاسم أمين روح أديب. كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة، التى لا تعرف الطمأنينة، ولا تستريح إلى السكون، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الانزواء فى ركن للبحث والتنقيب، حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنهها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال. بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيًا وإلهامًا أكثر مما تؤدى المباحث الجافة منطقًا وجدلاً. وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع، وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل، لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم!»[1].

---

(١) «تراجم مصرية وغربية»، ص ١٥٣.

قسمات المنهج الاجتماعى

[إن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هو: حالتها الاقتصادية.. وهى لا تتغير بإرادة شخص أو مائة شخص، أو إصدار قانون أو مائة قانون.. بل بتغيير الأسباب التى أوجدتها..

ولقد نظم الإسلام توزيع الثروة، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع فريد من الجماعية، واشتراكية سامية سبقت أكثر النظم السياسية ثوريةً بأكثر من ألف عام.

إن النوع الإنسانى، فى كل مكان، هو نفسه، بأخطائه ومواطن ضعفه، وأيضًا بعظمته وزهوه.. والحركة المستمرة إلى جهة الترقى هى قانون الحياة الإنسانية.. ولن يقف ماضينا ولا حاضرنا حائلاً بيننا وبين التقدم حسب هذا القانون الذى يسود الكون كله..].

قاسم أمين

من المعالم الهامة والإيجابية فى فكر قاسم أمين وآثاره أن روح الفنان والأديب التى ملكت عليه كيانه، وحددت رؤيته لكثير من القضايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعى الذى التزمه إلى حد كبير فى درس وعلاج قضايا الإصلاح التى عرض لها.. بل إننا نستطيع أن نقول: إنه كان من أبرز كتّابنا ومصلحينا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعى فى البحث وأهميته فى قيادة الباحث والمفكر إلى أسلم النتائج وأصدق المقولات.

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظرى ومنمق وبراق، بصرف النظر عن الواقع الذى يطبقون إصلاحاتهم فيه.. وينبه إلى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق، ثم يدعو إلى أن يكون الفكر وخطط الإصلاح مدروسة فى ضوء إمكانات الواقع الذى نرجو له التغيير والتطوير.. يقول:

«نحن نفهم أن رجلاً يعيش فى عالم الخيال، يكتب فى مكتبته على ورقة: أن ليس على النساء إلا أن يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال!

نحن نفهم ذلك، لأن الورق يتحمل كل شيء!

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها

بقياسها إلى الواقع، فإنه إذا أراد مثلاً أن يحصل لنفسه رأيا فى: ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها؟ يجب عليه:

أولاً: أن يسوق نظره إلى الوقائع التى تمر أمامه، أعنى أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها فى ذهنه منفذة معمولاً بها فى مدينة ثم فى إقليم.. ذلك عمل ليس بالسهل، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة.

فإذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكمًا قاطعًا، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية، فلا تكون نتائجها إلا تقريبية، لذلك تراه دائمًا على طريق البحث، لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل»[1].

فهو فى هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعى فى البحث والدراسة:

١ - فلا بد من دراسة الواقع، قبل التخطيط.

٢ - ولا بد من أن يكون الواقع ماثلاً فى الذهن ونحن نضع التخطيط، ماثلاً بمعطياته القائمة، وماثلاً متخيلاً فى حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه.

٣ - ولا بد أن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطًا بالواقع ككل، وبدءاً من الجزء وانتهاء بالكل.

---

(١) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين» جـ ٢ ص ١٦٢، ١٦٣.

٤ ـ ولا بد من اختبار مدى صدق المقدمات، لأنها ظنية وفروض لا تثمر المطلق والنهائى، بل النسبى والتقريبى.

٥ ـ ولذلك كله فلا بد من أن يكون البحث عملاً مستمراً، كى نضع فى اعتبارنا المعطيات الجديدة التى تثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق، وهى المعطيات التى تسهم فى اختبار صدق المقدمات، وتحدث التعديلات فى النتائج التى يصل إليها الباحثون.. فنسبية المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن «لا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل!».

وقاسم أمين لم يحدد هذا المنهج، لأنه نقله عن الفكر الأوروبى الذى درسه واستفاد منه.. لم يقف عند حدود الفهم والنقل، بل لقد طبق هذا المنهج فى بحثه لكل القضايا الإصلاحية التى عرض لها.

فهو عندما قرأ هجوم «دوق داركور» على مصر والمصريين، انفعل غضبًا حتى أصابته الحمى! ولم يجد علاجًا لمرضه إلا أن يرد هجوم الدوق.. ولكنه خلع انفعالاته، بل وجاهد للحد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الإمكان ـ وإن كان لم ينجح.. وما كان له ولا لغيره أن ينجح فى طلب ما هو مستحيل! لكنه حاول وبلغ قدراً من النجاح حققته محاولته الواعية هذه.. وعبر عن منهجه الذى اهتم بدراسة الواقع، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع، فقال: «ولقد

أطلت التأمل فى أبناء وطنى، بل لقد بذلت جهداً أكبر مما يبذله الأجنبى فى دراستهم والتعرف عليهم، وأعتقد أننى نجحت فى أن أكتشف أعماق وجدانهم»[1].

ووعى قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحكيم معطياته فى التخطيط، والتنظير هو الذى جعله يفرق بين الأبحاث الجادة التى تستحق الاحترام وبين الانطباعات التى يكتبها عن مصر أولئك «السياح» العابرون للسبيل، والباحثون - إلى جانب المتعة - عن القصص الغريب والنبأ العجيب، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع فى المجتمع الذى عنه يكتبون.. فيصف هذا اللون من التأليف بقوله: «إننى أعرف، بخبرتى، ذلك المنهج الذى يتبعه الأوروبيون فى تأليف كتبهم، فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم التراجمة من مواد، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة، كلما غلا ثمنها، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب!»[2].

وهو فى نقده لكتاب «دوق داركور» عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم فى هذا اللون من ألوان التأليف، فيقول: «إننى أفهم تمام الفهم دوق داركور، لقد أمضى الشتاء فى رحلة لم تنقصها المتعة! وطالع عدداً من قصص كتاب الرحلات، مهتماً أكثر بمن أساءوا فى كتاباتهم إلى الإسلام - الذى يكرهه من أعماق قلبه - ورأى من شرفة فندق «نيو أوتيل» وعبر نافذة السيارة التى

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٤٢.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٥٤.

كان يتجول بها، مجموعات من السكان الفقراء ذوى المظهر البسيط، وبهذه الطريقة ألف كتابه؟!»[1].

فهذا المنهج الذى يهمل دراسة الواقع هو منهج مرفوض، ونتائجه مرفوضة، من قاسم أمين.

وفى الأفكار الإصلاحية التى تمنى قاسم أمين تطبيقها فى عالم الأدب العربى نطالع كذلك إيمانه بهذا المنهج الاجتماعى، مطبقًا على هذا الحقل.. فهو يدعو إلى العمل على إعادة المكانة المفقودة إلى هذا الأدب.. مكانته القديمة التى كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله، وذلك بواسطة إصلاحين أساسيين هما:

١ ـ أن يصبح هذا الأدب انعكاسًا للتغيرات التى يشهدها الواقع المعاصر.

٢ ـ أن يطوع هذا الأدب لما جد فى المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الأسلاف، لا بد وأن تفرض أساليب جديدة للمعالجات.

وهو يعبر عن أفكاره تلك، فيقول: «إن الأمر فى حاجة إلى عبقرى يستطيع بنشاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التى كانت له قديمًا فى المجتمعات الإسلامية، فيجعله يعكس هذه التغيرات التى ينبض بها وضعنا الحالى، ويطوعه لعادات جديدة»[2].

بل إن اهتمام قاسم أمين ـ المنهجى ـ بالواقع لا يقف عند هذه

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٣٠.

الحدود، فهو يدعو ـ مثلاً فى ميدان التربية ـ لأن نتخطى حدود الفهم النظرى للواقع، ونمارس القيم ممارسة عملية.. يدعو إلى معرفة تكون ثمرة للخبرة والممارسة، ولا يكتفى أصحابها بالتحصيل والاستيعاب.. فيتحدث عن هذه القضية، من خلال نقده للواقع السائد فى ميدان التربية عند المصريين، فيقول:

«ومن الأسف أن المصرى لا يزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه فى المدرسة، وأنه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه، مع أن التعليم هو فى الحقيقة أقل فروع التربية شأنًا وفائدة.

نعم.. إنه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة، والفلسفة إذا شئت، ولو أنى أعتقد أن التعليم النظرى لا يفيد الغلام فائدة محسوسة، خصوصًا إذا كان فى السن التى يتلقى فيها العلوم العالية.

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا أن التعليم وحده لا يفيد شيئًا إذا لم يكن مصحوبًا بتربية قوية.. وذلك بتعويد الطفل لا على أن يفهم أن هذا الطيب طيب وذاك الخبيث خبيث، بل على أن يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع؛ لأن إدراك الحسن حسنًا والقبيح قبيحًا أمر سهل.. فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشىء المهم فى فن التربية، ولكن كله ينحصر فى اكتشاف وإظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا، أو غرسها فى نفوسنا، وتقويتها وإحيائها حتى تمسك فى النفس بجذورها، فلا

تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدًا . . والتربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب والقراءة والحفظ، بل تجب ممارستها!»[1].

* * *

ولو أن قسمات المنهج الاجتماعى لدى قاسم أمين وقفت عند هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافيًا فى انتزاع الإعجاب به والإكبار له، خصوصًا إذا نحن راعينا عصره وظروف مجتمعه، ولكنه لم يقف بقسمات هذا المنهج عند تلك الحدود، وذلك لسبب بسيط وعميق، هو أن ذلك المنهج الاجتماعى، والذى تحدثنا عنه، والذى آمن به قاسم أمين وطبقه فى دراسته لقضايا الإصلاح التى عرض لها . . إن هذا المنهج كان ثمرة لإيمانه العلمى بأن الكون بأسره إنما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لا تختلف ثمراتها . . فهناك وحدة فى قوانين الكون ونظمه . . وهناك وحدة فى قوانين تطور الإنسان عبر كل العصور وفى كل البيئات، وهناك وحدة فى قوانين تطور المجتمعات.

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية فى دائرة التطور البشرى العام، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثر بنهضات الآخرين، بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصى على قبول القوانين العامة والموحدة لتطور الكون والمجتمع والإنسان.

---

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢١٠، ٢١١.

وقاسم أمين لا يطرح هذه القضية كأمر فكرى ونظرى مجرد، وإنما ينبه إلى أن وعيها هو أمر ضرورى لنا، ونحن نعالج كتابة التاريخ وتفسير أحداثه، وأيضًا ونحن نعالج قضايا الإنسان المعاصر وإصلاح عيوب مجتمعاته، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فإن للظواهر التاريخية والاجتماعية والإنسانية قوانينها التى تحكمها، والتى لا بد من وعيها، لمن يتصدى لهذه الظواهر بالدراسة والعلاج، يقول بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح.. ذلك «أن المؤرخ يشرح أطوار أمة فى زمن من عمرها، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها، وحالتيها الاقتصادية والسياسية، داخلاً وخارجًا، وما هى عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون، ويبين من خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة. ولا يعتنى إلا قليلاً بسرد الحوادث - كما يفعله مؤرخونا - وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى».

هكذا يحدد المنهج الاجتماعى فى كتابة التاريخ.. فليست الحوادث والوقائع هى الأسباب، بل هى المسببات، والقاعدة التى تثمر ما نسميه «تاريخًا» هى الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات والتقاليد ووسائل المعيشة... إلخ. أما كتابة التاريخ كركام من الأحداث - على عادة مؤرخينا، كما يقول - فهو منهج خاطئ يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعى كواحد «من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى!».

وكـمـا يجب ذلك على المؤرخ ، يجب أيضًا على السـاسـة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة . . «فكما يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتَّاب المشتغلون بالأحوال العمومية فى الحال ، فيدرسون زمانهم درسًا تامًا ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك .

إن هذه الأمـور إنما هى العلل التى أنتـجت تلك الحـالة ، وإن تغييرها لا يكون بالصدفة ، وإنما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة ، إذ السبب والمسبب دائمًا متلازمان ، عقلاً وعادة ، متى وجد أحدهما وجد الآخر حتمًا ، وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العـالم كله ، فليس فى الكون شىء وجد بلا موجد وسبب ، واضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل» .

وبعد هذا التأكد على أن تطور المجتمعات وتغييرها إنما تحكمه قوانين ، تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمة إذا شئنا تغيير المسببات والأبنية العلوية والتابعة - ينبه قاسم أمين إلى أن خفاء هذا القانون فى الظواهر الإنسانية لا يعنى تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وإن تميزت هذه الظواهر بأسباب لا تجعله واضحًا وجليًا كما هو حاله فى ظواهر الطبيعة .

«إن هذا القانون الإلهى وإن كان لا يظهر بوضوح تام فى علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر فى العلوم الطبيعية :

أولاً : لأن مـعـارفنا المختـصـة بالمجتـمع الإنسـانى هى ، فى الحقيقة ، فى أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .

وثانيًا: لأن الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد، بل يشترك في مقدماتها عدة أسباب متنوعة.

وثالثًا: لأنها تظهر دائمًا أنها تحت إرادتنا، وأن لنا سلطة في إيجادها وتعديلها.

ولكن يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الجسم الاجتماعي ليس خاضعًا لذلك القانون العام كغيره».

ثم يستطرد ليؤكد على أن هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله في قرآنه، فيذكر أن آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) هي أساس لذلك القانون، وبها يظهر للقارئ كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه القضية، كما تتفق معه دائمًا لو كان القائمون بشئونها رجالاً أكفاء، يخدمونها بجد ويفهمونها بأصالة وإدراك[١].

ولقد كان طبيعيًا أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون علمي، ليس في نطاق الظواهر الطبيعية فقط، كما اشتهر عند تشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م) في ذلك العصر، بل وفي الظواهر الخاصة بالحياة الإنسانية، ذلك «أن هذا التغير والتحول، بل الحركة المستمرة إلى جهة الترقي، هي قانون الحياة الإنسانية، التي خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء. وبهذا القانون خرج الإنسان من المعيشة البهيمية، التي لا يزال عليها إخواننا المتوحشون من سكان إفريقيا وأمريكا، ممن وصفهم العلماء بأنهم

---

(١) المصدر السابق. جـ١، ص ٢٠٩.

قردة متمدنة، عندما شاهدوا أن المسافة بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التى بينهم وبين أناسى أمة متمدنة!»[1].

ولقد استفاد قاسم أمين من إيمانه بقانون التطور، ووحدته وفاعليته الأزلية الأبدية، فاستخدم حقائقه أسلحة فى الصراع ضد فكرية الغرب الاستعمارى الذى حاول، فى سبيل السيطرة علينا والاستغلال لنا، أن يوهمنا أن قانون التطور والتقدم والارتقاء، فى المجتمعات، إنما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة، أما نحن الشرقيين فإننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون!

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن «أن تاريخ تأسيس الدول فى العالم موضوع تأملات متصلة، وهو يؤكد حقًا أن النوع الإنسانى، فى كل مكان، هو نفسه، بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه، وأيضًا بعظمته وزهوه، والقانون الأبدى الذى يحول المادة يحول أيضًا البشر والأنظمة، ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذى لا مهرب منه، والذى يحكم حركة التقدم البشرى، والإنسانية تعبر عن نفسها فى كل مكان بنفس الطريقة، وتتبع نفس المسيرة.

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية، وستنتهى إلى الحرية. غير أنها فيما بين هاتين الفترتين مقضى عليها أن تعانى محنة الاستبداد، الذى يبدو أنه ضرورى لاختبارها، ما أسعد الدول التى يكتب لها، بعد هذه المحنة، البقاء!»[2].

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٧.

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكرى الغرب الاستعماريين وحدهم، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التى تعادى التطور على وهم أن بالإمكان إيقاف قانونه عن العمل، والعودة إلى الماضى أو الحفاظ على بقايا آثاره التى تشد المجتمعات الشرقية إلى الوراء.

وهو فى سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يمضى متسائلاً ليقول: «.. إننى - بكل حسن نية - لا أرى لماذا يقف ماضينا - كما أرى، أو حاضرنا، كما يراه دوق داركور - مهما كان سيئًا، حائلاً بيننا وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال، وهو القانون الذى يسود حركة الكون كله؟!»(١).

وكما أثمر إيمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعى تلك الثمرة التى جعلته يرى الأسباب فى علاقاتها بالمسببات، والتى جعلته يشير إلى السبل العلمية المثلى فى دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والإنسان.. فهى أيضًا قد أثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات التى تحدث فى الأبنية العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على إحداث تطور حقيقى فى هذه الظواهر.. فتغيير الواقع الاجتماعى هو الذى يحدث التغيير الحقيقى، وليس تغيير القوانين والقيادات هو الفاعل الحقيقى فى تلك المجتمعات.. وعن هذه الحقيقة الهامة يقول: «إن حالة الأمة، فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر، ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة، بل

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥٦.

إنها نتيجة لازمة لا تتغير إلا إذا تغير ما بنفس هذه الأمة . . والحالة الاجتماعية متى عُرف كيف وُجدت يُعرف كيف تزول ، فهى لا تتغير أبداً إلا بحال آخر ، بمعنى أن إرادة شخص أو مائة شخص أو إصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس ! »[1] .

تلك كانت درجة إيمان قاسم أمين بأهمية القاعدة المادية للظاهرة الاجتماعية ، وكيف أن تغييرها هى السبيل الحقيقية لإحداث التغييرات الحقيقية والتطورات ذات القيمة التى يسعى الإنسان لإنجازها كى يتطور بمجتمعه وواقعه إلى الأمام .

* * *

بل لقد خطا قاسم أمين فى هذه السبيل ، إلى الإمام ، خطوات أكثر تحديداً وأشد عمقاً وأنضج فى باب الإيمان بالمنهج الاجتماعى فى البحث والدرس والإصلاح . . فوجدناه يركز على أهمية العامل الاقتصادى والأسباب الاقتصادية ، ويبرز دورها المتميز فى تحديد الصورة العامة للظاهرة ، ويؤكد على فعاليتها فى التطور إذا ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر فى كتابة مقالاته التى نشرها فى « المؤيد » حدد منهجه ، ونبه على أن عينه ستكون أكثر تركيزاً على العوامل المؤثرة فى المجتمع ، بهدف إلقاء الضوء على السبل الحقيقية للتغيير المنشود . . وبصدد حديثه على منهجه هذا كتب يقول :

---

(١) المصدر السابق ، جـ١ ص ١٩٠ .

«.. شرعت فى هذا العمل .. باحثًا عن حالتنا الراهنة، لا من جهة السياسة، فإنى لست مشتغلاً بها إلا من حيث كونى مصريًا أحب الوقوف على الحوادث التى تجرى فى وطنى، وللسياسة الآن قائمون، والحمد لله، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج إليه الحال، بل من الجهات الأخرى، كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين ..»[1].

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و«المعيشة الاقتصادية» قبل عوامل: التربية، والعوائد، والدين.

وفى موطن آخر يزيد هذا الموقف حسمًا ووضوحًا، عندما يقول: «إن أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتها الاقتصادية.. ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس فى إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء»[2].

وهو هنا يشير ـ بعد تقريره أن الحالة الاقتصادية هى أهم العوامل تأثيرًا فى حالة الأمة والمجتمع ـ يشير إلى أن لهذا العامل قوانينه العلمية التى لا بد من الوعى بها، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الإمكان.

فإذا انتقل للحديث عن المرأة وجدناه ينبه إلى دور العامل الاقتصادى فى أوضاعها الراهنة، إن سلبًا أو إيجابًا.

فللعامل الاقتصادى الدور الأغلب فى انحراف المرأة الخلقى

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ١٩١.

(٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٦٩.

وتفريطها فى عفتها وسلوكها المسلك المشين، ولذلك فإنه يمكن أن يقال: «إننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة.. وقلما كان الباعث على ذلك الميل إلى تحصيل اللذة..»[1].

كما يبصر العلاقة بين الوضع الاقتصادى لطبقة من الطبقات وموقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلاً.. فالتعدد لا ينتشر فى الأوساط الريفية التى لا ينتج أهلها ما يسد رمقهم، كما ينتشر فى أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهل والتخلف والبحث عن اللذات.. يقول قاسم أمين:

«وأستطيع أن أؤكد أن حالات تعدد الزوجات نادرة فى مصر، ونتحدث عن الريف فى البداية، فالفلاح متمسك بالزوجة الواحدة، بشكل جذرى، وسبب هذا أنه يكسب ما يكاد ينقذه من الموت جوعًا.. أما فى المدن فقد بقى بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة!»[2].

فللتعدد، وجودًا وعدمًا، قلة وكثرة، علاقة وثيقة بالوضع الاقتصادى لكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات.

---

(١) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١.

(٢) المصدر السابق جـ١، ص ٢٨٨.

هكذا يتكشف لنا قاسم أمين عن مفكر ومصلح امتاز بالإيمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعى الذى أعانه على دراسة المعضلات التى عرض لها بالدرس والإصلاح .

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق . . وذهب فى ذلك مذاهب ، تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة .

وهو قد وعى القوانين التى تحكم الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية أو إنسانية . . واستخدم وعيه فى تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفى رد سهام الأعداء الذين كانوا يناصبون وطنه وأمته العداء .

وهو ، أخيراً ، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع وحالته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة فى أية عملية للتغيير أو التطوير ، يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات إلى الأمام .

المجتمع الذى بشر به

[إن التربية هى: رأس مال لا يفنى...!

وحياة كل أمة مرتبطة بماليتها.. والتجارة هى علم الثروة الحقيقى.. وليس الغرض أن يجمع الإنسان المال حبًا فى المال، بل المراد أن يكون لديه طموح شريف إلى العلاء.

والاستبداد أصل كل فساد فى الأخلاق.. والحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر..

فكم من الزمن يمر علينا قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟!].

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من المصلحين البارزين فى مدرسة الاستنارة واليقظة والتنوير فى مصر والشرق العربى والإسلامى، تلك المدرسة التى تكونت أول ما تكونت بمصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ورائدها هو رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م).

وكان الموقف الاجتماعى لهذه المدرسة يستهدف التطور بالمجتمع من مرحلة الإقطاع، والانتقال به إلى المرحلة البورجوازية، بكل ما تعنى هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين فى ذلك بما للإسلام من مواقف ومبادئ تنتصر للعقل وترفض الكهنوت والسلطة الدينية - وبكل ما تعنى هذه المرحلة البورجوازية كذلك من إعلاء لشأن «العمل» ونقد لقيم التبطل التى تميزت بها مجتمعات الإقطاع وكبار الملاك، والدعوة إلى إشاعة التنافس والطموح، وتنبيه الناس إلى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات، وخوض غمار المنافسة والمخاطرة فى هذه الميادين ضد أوروبا التى كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية، سواء فى صورة شركات وجاليات ومغامرين، أو فى

ظل جيوش وسلطات احتلال تحمى وتقنن ذلك النهب والاستنزاف[1].

ومن هنا، فإننا نجد لدى مصلحى مدرسة التنوير هذه، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعى، قاسمًا مشتركًا يتمثل فى أمرين محددين:

أولهما: نقد بقايا المجتمع الإقطاعى القائم، وتسفيه قيمه، والازدراء على الأعراف التى سادت مجتمعات كبار الملاك.. وكان كثير منهم بمصر يومئذ من المتمصرين والشراكسة والأتراك.

وثانيهما: الدعوة إلى إحلال قيم المجتمع البورجوازى - وكانت هى الأكثر تقدمًا بالنسبة لمجتمع الإقطاع وكبار الملاك - الدعوة إلى إحلالها كبديل لقيم المجتمع القديم.

ونحن إذا نظرنا فى الفكر الاجتماعى لقاسم أمين، وبحثنا عن نوعية المجتمع الذى بشر به مواطنيه، وجدناه يدعو إلى هذين الأمرين المحددين بوضوح وجلاء.

فهو يوجه نقده إلى المجتمع القائم، ويعيب عليه ضعف طبقة البورجوازية، التجارية والصناعية فيه، ويسفه من الهالات التى بها، هذا المجتمع فئة الموظفين، لأنهم بلا سند اقتصادى يضمن لهم لقمة العيش إذا ما تأخرت عنهم المرتبات! ومن ثم فلا دور لهم فى الإنتاج والتطور الاقتصادى للمجتمع الذى يخدمون

---

(١) انظر الفصل الذى كتبناه عن الفكر الاجتماعى لرفاعة الطهطاوى فى تقديمنا لأعماله الكاملة، جـ١ ص ١٧٥ - ٢٠٠.

حكومته . . ويوجه سهامه إلى الوضع المزرى لطبقة كبار الملاك الذى أغرقوا أنفسهم فى التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفه والتبذير بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية فى الديون .

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه ، فيقول :

«إن مصر بلدة فقيرة جداً ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون ، يعيشون بالشىء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعاً ، والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين :

الأول : يشمل التجار والصناع . . وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : أنه مالى ملى !

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ، وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار ، نوعا ما ، فى معيشتهم ، ولكن أغلبهم إن حيل بينهم وبين مرتبهم شهراً واحداً وقعوا فى العسرة والضنك الشديد !

أما أرباب الأطيان ، من الذوات والعمد والمشائخ والأعيان فى البلاد ، فحالهم كحال «رابيل» ، المؤلف الفرنساوى المشهور إذ قال فى وصيته : «إنى لا أملك شيئا ، وعلىّ ديون كثيرة ، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء» ! ! والبلد الذى يكون أهله فقراء ، مثلنا ، لا يمكنه ، مادام فقره ، أن يؤمل خيراً فى المستقبل ، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، إذ بالمال يتم كل شىء ، وبغير المال لا يتم شىء مطلقا !»[1] .

---

(١) المصدر السابق ، جـ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

وفى موطن آخر، يسلط هجومه على قيم الكسل والتبطل والزهو والتواكل التى تسود المجتمع القديم، ويعلل انتشار هذه القيم المناهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسى الذى قهر ملكات الناس وكره إليهم استثمار طاقاتهم، عندما أيقنوا أن المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهاد، وساعد الاستبداد فى ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضار والمعوق لتطور المجتمعات.

يتحدث قاسم أمين فى ذلك عندما يعرض لمكان الإنسان المصرى من «العمل» و«الطموح» فيقول: «إن المصرى طماع (طموح) كغيره، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه، فهو إذن يحب أن تمطره السماء ذهبًا وأن تنبته الأرض فضة، يحب أن يكون أغنى الناس، على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره! والسبب فى سقوطه هذا أمران:

الأول: سوء معاملة الحكومات السابقة له، فإنها لغدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية، ففقد المصريون بذلك ملكة الإقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل.

والثانى: سوء تربيته، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات، بل وأيامًا، على المقاعد والمراتب والمصاطب، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ، وترك النظر فى الأشياء، مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم،

وتكرار سماع القصص والأحاديث التى وضعت فى الأصل لتسلية الفقير وإزالة الأحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة.. ولكن غشيتنا جهالتنا، وألفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها، وحشيناها ووشيناها، حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا!»[1].

* * *

وبدلاً من هذه القيم التى كانت لها السيادة والانتشار فى ذلك المجتمع الإقطاعى، بشر قاسم، كغيره من مصلحى مدرسة التنوير، بقيم المجتمع الجديد.. فهاجم الزهد والقناعة والرضا بالقليل، ودعا إلى الطموح وطلب المزيد والمزيد مما هو مشروع.. وقال وكتب مؤكداً أن «من البديهى أن الإنسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف، لأنه لو كان هذا داعى الفطرة البشرية لما كان التنافس فى المزيد. فعلى الإنسان أن يسعى، والحالة هذه، لتحسين حالته المادية والأدبية، فإن كان يكسب فى اليوم قرشين، فعليه أن يجتهد فى توصيلها إلى خمسة، ثم إلى عشرة، وهكذا.

وليس الغرض.. من تحسين الحال، على هذه الطريقة، أن يجمع الإنسان المال حباً فى المال، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف إلى العلاء، ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى فى استزادة موارد كسبه، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك على حاجاته المادية فى

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ١٩٧، ١٩٨.

ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة، وأن يأتى من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله[1].

وفى مواجهة القيم التى تمجد التبطل والكسل و«الراحة»، يبشر قاسم أمين «بالعمل» المنتج، وذلك من خلال نقده لتكالب الناس على «العمل» كموظفين فى الجهاز الحكومى، مع أنه «لو تذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان فى طائفة الموظفين إلا بنسبة قليلة جداً، وأن كل إنسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه، وأن يعلو على أكبر ملك فى الدنيا بفضيلته وعلمه، لما رأى ورأوا فى انفصاله من خدمة الحكومة إلا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئاً!»[2].

والتعليم.. يعلم قاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تُطلب لذاتها، فإن له دوراً فى تنمية الحياة.. بل لقد تحدث عنه على أنه «استثمار» رابح بمقاييس «الاستثمارات» والأرباح.. ومن هنا كان «كل ما يصرف فى سبيل التعليم والتربية، كالدراسة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة، لازم.. إنه لا يجوز مطلقاً الاستغناء عن صرف الأموال فى هذه السبيل، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذى هو قوام الحياة. لأن التربية هى رأس مال لا يفنى، أما المال فما أقرب ضياعه، وخصوصاً فى يد الغبى الجاهل!»[3].

* * *

وكما سبقت إشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الإقطاعى تعلى

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٠٦.

من قدر كبار الملاك بالوراثة، والأثرياء بالوراثة، وترفع شأنهم الأدبى والاجتماعى فوق شأن التجار والبورجوازية التجارية التى يعمل أهلها بأيديهم وينمون ثرواتهم وثروة المجتمع . . ولذلك وجدنا قاسم أمين يسفه من فكر كبار الملاك ويسخر من «شرفهم ونبلهم» المزعومين، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التى كانت فى دور النشأة والتكوين، فيتحدث كيف «كان المصريون، إلى عهد غير بعيد، ينظرون إلى التجارة بعين الاحتقار، ويحسبون أنها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار، وإلى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الأمراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب، ووضعوا النشانات على صدورهم، وعلقوا فى مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم إلى الأرض، تخيلوا أنهم من إنسانية أخرى أعلى من إنسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم . . . وهم يرون كل خدمة غير «أميرية» وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هى أشياء لا يليق الاشتغال بها. ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة إلا فئة قليلة، برهنت على إرادة وإقدام وأصالة رأى تستحق عليها ثناء الأمة المصرية بأسرها.

ولو قارن أى إنسان، لم يعمه الجهل، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة وبين أولئك الذين منبع ثروتهم، فى الأغلب، العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج، أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر!»[1].

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ١٩٨، ١٩٩.

ولقد كان قاسم أمين يعى جيدا أن ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحاً وسهلاً للنشاط التجارى الذى يقوم به الأجانب والنازحون إلى بلادنا، فأخذ ينبه قومه إلى قيمة التجارة كحرفة، بل وكعلم من أشرف العلوم، لدى الدول الأوروبية المتقدمة والاستعمارية، ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوروبيين فى هذا الميدان.. فأهاب «بالآباء أن يعدوا أبناءهم إلى غاية الوصول إلى السعادة وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال، لأنها أبواب الثروة الحقيقية، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها، وأول شىء يجب أن يلتفتوا إليه اليوم هو التجارة».

إن الأوروبيين يجمعون الأموال الهائلة.. «لأنهم فهموا أن التجارة هى علم الثروة، وهى علم حقيقى لا يقل فى الفضل عن أشرف العلوم، ويدرس فى المدارس، ويتمم بالاختبار والعمل[1] وأنت أيها المصرى البطال، ابن البلاد، وأدرى بما فيها، ولك فيها القريب والحبيب، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون إلى بلادنا؟!»[2].

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية، والتجارية منها خاصة، فى الصراع العالمى بين الدول الاستعمارية المتنافسة، ويورد نبوءة الساسة بقيام الحرب العالمية الأولى، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عامًا! وذلك عندما يكتب فيقول:

«إن أمم أوروبا قد وجهت التفاتها إلى المسائل الاقتصادية

---

(١) المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٩٥.

واعتناءها بها كل الاعتناء، فأنشأت نظارة ـ (وزارة) ـ للتجارة، وللصناعة، وللمستعمرات، وأكثرت من إنشاء المدارس التجارية والصناعية، وتهافتت على وسائل الاستعمار، وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذه السبيل.. حتى أن رجال السياسة صاروا يعتبرون أنه لا بد من الحرب يومًا بين إنجلترا وألمانيا، لأن المنافسة بين الأمتين فى جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن إحداهما لا يمكن أن تستمر فى طريقها إلى إذا سحقت الأخرى!».

ثم يستطرد ليقرع الأسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة، ومنها مصر، هى موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى الاستعمارية، وأن النهضة هى سبيل إفلاتها من مصيرها الأليم، فيقول: «إننا نحن المصريين لا شغل لنا إلا التفرج على المتنافسين.. والحقيقة أننا نحن موضوع تنازعهم، وسبب مشاكلهم، نحن اللقمة الدسمة التى يريد كل منهما ـ (الإنجليز والألمان) ـ أن يبتلعها فى جوفه!»[1].

إن قاسم أمين يدعو إلى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار، ويتمنى لمجتمعه أن يكون مثل تلك المجتمعات التى توصلت أممها «إلى اقتناء الثروة، وكثر فيها الأغنياء الماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين، كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات!».

ثم يضيف متحفظًا على طرق جمع الثروة، فينبه أن طريق العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها، قائلاً: «... ولكن

(١) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٩٢.

الشيء المهم، الذى أرجو ملاحظته، هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هى نتيجة عمل صاحبها.. إنه يشتغل ليكسب، يشتغل دائماً، يشتغل فى النهار، ويفكر فى شغله بالليل!»[1].

فهو داعية للتطور الرأسمالى، ومناضل من أجل إزالة العوائق الإقطاعية من طريق هذا التطور، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازى.. ولقد كان هذا الطريق، بالنسبة لمجتمعه وعصره، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه فى ذلك التاريخ.

* * *

وإذا كانت هذه هى الدعوة التى بشر بها قاسم أمين فيما يتعلق بالقاعدة المادية للمجتمع الذى نقده، والذى بشر به، فإنه قد صنع، فى إطار البناء الفوقى للمجتمع، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الاتساق.. فهو قد هاجم الاستبداد، الذى كان سمة للحكم الشرقى الفردى الإقطاعى.. ودعا إلى الحرية كما عرفتها المجتمعات البورجوازية الليبرالية فى أوروبا، وطالب بالحياة النيابية فى وقت مبكر جداً، إذا ما قيس بالأصوات التى ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز للبلاد.

فهو يتحدث عن «أن الاستبداد أصل كل فساد فى الأخلاق..»[2].

ويطالب بأن تكون الحرية فى الاعتقاد، وفى التعبير عن

---

(1) المصدر السابق، جـ1 ص 192، 193.

(2) المصدر السابق، جـ1 ص 220.

المعتقدات مصونة ومكفولة، بل ومقدسة، مهما تكن الآراء والمعتقدات التى يعتنقها الناس ويعبرون عنها. يقول: «ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.. فى البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأنه لا وطن له، ويكفر بالله ورسله، ويطعن فى شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية، يقول ويكتب ما شاء فى ذلك، ولا يفكر أحد، ولو كان من ألد خصومه فى الرأى، أن ينقص شيئًا من احترامه لشخصه، متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح».

ثم يتساءل: «كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟!»[١].

وهو ينبه إلى أمر هام جداً عندما يربط بين احترام المجتمع للفضيلة ومقته للرذيلة وبين قيام رأى عام قوى فى هذا المجتمع، إذ «لا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبًا فيها، والرذيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته!»[٢].

فلا المواعظ والخطب، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئًا ذا قيمة فى إعلاء شأن الفضيلة وخفض منزلة الرذيلة، كما يفعل ذلك قيام الرأى العام صاحب الحكم القوى والسليم.

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٢٦.

ثم يتوج قاسم أمين فكره الديموقراطى بالدعوة إلى الارتقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعى الاستشارى الذى أقامته سلطات الاحتلال الإنجليزى بديلاً عن المجلس النيابى الذى حلته بعد هزيمة الثورة العرابية . . يدعو قاسم أمين إلى الارتقاء خطوات من هذا النظام الذى مرت عليه عشر سنوات، إلى نظام المجلس التشريعى البرلمانى غير الاستشارى . . فيكتب فى سنة ١٨٩٤م قائلاً: «لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعى ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها، حتى أن قادتنا يستلهمونه أفكارهم، كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين، وأنا واحد منهم، ترى أن هذه السنوات العشر تمثل تدريبًا كافيًا، وأن مصر بعد ألفتها للتمثيل القومى قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشاريًا فقط، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الإصلاح. غير أننا نود بالطبع نظامًا تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية، لا للكم العددى . .»[1] .

* * *

هكذا فكر، وكتب قاسم أمين . . وهكذا نلتقى فى آثاره الفكرية بما يؤكد أنه كان ناقدًا للمجتمع الإقطاعى، مهاجمًا لقيمه . . مبشرًا بقيم المجتمع البورجوازى، وداعيًا إلى فتح الطريق أمام المجتمع المصرى كى يدخل إلى رحابه، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الإقطاع وكبار الملاك .

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٤٥، ٣٤٦ .

التطور الفكرى

[إن ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد، وذلك حماية لهما من الضعف وقضاء على مصدر الشر.

* ليس فى الشريعة نص يوجب الحجاب.. وإنما هى عادة أخذناها عن بعض الأمم.. وأن نساء العرب والقرى المصرية، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن المحجبات.. إن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة!

* إننى لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى لتحصيل الطلاق، فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى!

* إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق دائرته، وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج..!].

قاسم أمين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م، أحدث ضجة كبرى فى المجتمع المصرى والمجتمعات الشرقية، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت فى الشرق من حول كتاب فى القرن الذى ظهر فيه.

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب، فضلاً عن الفصول والدراسات والمقالات، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت، تقريبًا، للجدل فى موضوع الكتاب، إن بالتأييد أو المعارضة والتفنيد.

ولقد كانت القضايا الرئيسية التى أثارت الجدل أكثر من غيرها - من بين قضايا «تحرير المرأة» - هى:

١ - ما أثاره الكتاب عن الحجاب الذى كان يسود عالم المرأة في ذلك الحين.

٢ - ما دعا إليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل في إنهاء رابطة الزوجية بالطلاق.

٣ - نقده لنظام تعدد الزوجات، والدعوة إلى ضبطه وتقييده.

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا، أكثر من غيرها، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسرى السائد، ولأبرز مشاكل المرأة

الشرقية، ولأخطر القيود التى تحد من إمكانيات تطورها وتحررها وكذلك ـ وهو هام جداً ـ العلاقة الوثيقة بين هذه القضايا، والبحث فيها، وبين الشريعة الإسلامية. . ذلك أن الجدل حول أية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعة الإسلامية إنما ينقل، وعلى الفور، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص إلى الساحات العامة التى تتواجد فيها وتشارك أوسع الجماهير، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصلاح للإدلاء بما هو صواب من الآراء!

ونحن نعتقد أن خصوم قاسم أمين وكتابه «تحرير المرأة» لو فكروا، أو فكر واحد منهم، فى ترجمة كتابه «المصريون» عن الفرنسية إلى العربية ـ وهو الذى صدر قبل «تحرير المرأة» بخمس سنوات ـ لكان الذى يرد على قاسم أمين فى «تحرير المرأة» هو قاسم أمين فى «المصريون»! وبالذات فيما يتعلق بالقضايا الأساسية الثلاث التى أثارت الجدل والعراك.

ذلك أن قاسم أمين قد قدم فى «تحرير المرأة» الآراء التى كان ينقضها ويفندها فى «المصريون»، ومن ثم فإننا عندما نقرأ كتابه «المصريون» يخيل إلينا أن الذين يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب، والطلاق، وتعدد الزوجات!!

وهذا هو الأمر الذى دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكرى لقاسم أمين. . والذى يدعونا للتساؤل: كيف لم يلتفت

إلى هذه الحقيقة، لا خصومه فقط سنة ١٨٩٩م، بل ولا أحد من دارسيه بعد ذلك التاريخ؟!

صحيح أن البعض قد أشار إلى أن قاسم قد (فصَّل) فى «تحرير المرأة» بعض ما أجمله فى «المصريون»[١]، كما أشار آخرون إلى أن حماسه لبعض الآراء فى «المصريون» قد استبدل بالروح الهادئة والمنطق الموضوعى فى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» .. ولكننا نعتقد أن هذا التشخيص غير كاف، بل وغير دقيق، حتى لقد خُيل إلينا أن دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكرى الجذرى الذى حدث لقاسم أمين، إما أنهم لم يقرأوا «المصريون»، أو أنهم قرأوا قراءة العابر المتعجل الذى لا تستوقفه أبرز المعالم فى هذا الكتاب؟!

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة .. لننظر فى فكر قاسم أمين فى كتابيه هذين «المصريون» و«تحرير المرأة»، خاصة ما تعلق منه بهذه القضايا الثلاث:

الحجاب والمجتمع الانفصالى

يدافع قاسم أمين فى كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م عن نظام الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره، ويمتدح النظام الصارم الذى جعل المجتمع الشرقى مجتمعًا انفصاليًا، يحرم فيه اختلاط الرجال بالنساء، ويهاجم تحرر المرأة الأوروبية، ويغالى

(١) «الهلال» تأبين قاسم أمين: انظر مقدمة الناشر لكتاب «أسباب ونتائج»، ص ١٣.

فى تصوير مساوئ الاختلاط فى أوروبا، ويدمغ الرجل والمرأة الأوروبية، غالبًا، بالتحلل والافتقار إلى العفة وصيانة الأعراض. . يقدم فى القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر «تحرير المرأة» فى سنة ١٨٩٩م!

فهو لا يرى فى المجتمع الشرقى، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء، أية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها أى شيء نافع لها أو للمجتمع. . بل يرى أن المساواة متحققة تمامًا بين الرجال والنساء، ذلك «أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله، بل ويفعلنه، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن، وكذلك فإن كل محرم علينا محرم عليهن أيضا، ولما كان محرم علينا، نحن الرجال، أن ندخل فى مجتمع النساء فيبدو لى، من الطبيعى، أن يقع نفس التحريم على نسائنا. وإننى أكرر، من وجهة النظر هذه، أن وضع الرجال هنا مشابه لوضع المرأة تمامًا»[1].

ثم يقرر أن هذا المجتمع الانفصالى، الذى كان سائدا يومئذ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين، «لأن ديننا. . قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد. لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف، والقضاء الجذرى على مصدر الشر!»[2].

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٧٩.
(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٩٣.

نعم . هذا هو كلام قاسم أمين! هو كلامه فى «المصريون» سنة ١٨٩٤م . . وهو أيضًا مضمون كلام خصومه عند صدور «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م!

ثم يهاجم عادات الأوروبيين فيما يتعلق بالاختلاط، متهمًا إياهم بالتحلل الخلقى، مصورًا أن نتائج الاختلاط غالبا ما تنتهى بفقدان المرأة عفتها وتفريط الرجل فى عرضه، يقول: «أننى أعرف أنه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس اللطيف، وأن النساء اللاتى يعرفن إبداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن، غير أنَّا لا نصادف كل يوم قلاعًا حصينة، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام، المسألة مسألة صبر، و«استراتيجية وتكتيك»! ثم إنه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح، والانطلاق فى الهجوم الحاسم، فى اللحظة المناسبة، لاقبلها ولابعدها!»[1].

وهو لا يعرض هذه الصورة التى تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوروبية عملاً مكرسًا، أساسًا، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام. . . لا يعرضها بوصفها انحرافا أصاب المجتمع الأوروبى، وخرج به عن فكره المتمسك بالعفة والشرف، بل يرى فى هذه الصورة التطبيق لفكر الأوروبيين فى هذا الموضوع. . فيقول:

«يبدو من أفكار الأوروبيين أن استمتاع المرء بالسعادة وحده هو

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٩٣، ٢٩٤.

زعم مرفوض، بل إن الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة إذا رغب فى الاستئثار بها، إن عليه أن يتيح لها أن تعاونه، وتدلى بدلوها فى إرضاء أصدقائه، وهو يفهم أن يمزح أصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها، ويوجهوا إليها عبارات الغزل المتصلة، دون أن يقلق الزوج أو يسىء النظر إليهم، فهم فى الواقع فتيان شجعان، وبعضهم أصدقاه منذ الطفولة، ولاشىء مما يفعلونه يعد جاداً أو خطراً، والأمر، كما يرى، مجرد دعابة، ولاشىء غير ذلك! كما يمنح الزوج فى نفس الوقت اهتماما لزوجات الآخرين، ويخاطبهن بنفس اللغة، ويقول لهن نفس المجاملات، ويوجه إليهن نفس عبارات الغزل، تلك هى متعة اللقاءات المشتركة!»[١].

ثم يقارن بين موقفنا، نحن الشرقيين، من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدنا، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول:

«إنه على نقيض العادات الأوروبية، التى يبدو أنها خلقت لنشر المتعة على الأرض.. تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة.. إن فى العالم الإسلامى مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية فى كل تفاصيل حياتهم، غير أنه لايوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج فى ظل العادات الأوروبية، ويجب لقبولهم هذه العادات

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٩٢.

أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود.

إن عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى نسائنا روحًا ما زالت نقية، وقلبًا ما زال مكتمل الحنان، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم، فالزواج عندنا بداية، في حين أنه عندهم، تقريبًا، دائمًا نهاية!»[1].

هكذا كتب قاسم أمين في كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م:

١ - فحبذ الحجاب للمرأة الشرقية، ودافع عن المجتمع الشرقي الانفصالي.. ورأى في ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الإسلام، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء.

٢ - ووجه سهام نقده وهجومه إلى الاختلاط في أوروبا، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التي ربما كانت خاصة بشريحة هامشية في تلك المجتمعات.

٣ - وخلص إلى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة إلى التغيير.. وأن المشكلة هناك لدى أوروبا التي أباحت الاختلاط ففقدت النعيم الذي ينعم به الشرقيون؟!

والآن، ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية في «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩؟!

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٩٤، ٢٩٥.

فى «تحرير المرأة» ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من أن الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية، يرتبط فيها بتعاليم الإسلام.. ويراه «عادة» مرت بمجتمعات عديدة، ومنها مجتمعات أوروبية، ويقرر أن تطور هذه «العادة» بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من «العادات»، يقول: وذلك «لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم» قال «لاروس» تحت كلمة «خمار»: «كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه، كما هو الآن عند الأمم الشرقية». وقال: «ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل فى البلاد، فكن يغطين رءوسهن إذا خرجن فى الطريق وفى وقت الصلاة، وكانت النساء تستعملن الخمار فى القرون الوسطى، خصوصًا فى القرن التاسع، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر، حيث صارت النساء تخفف منه إلى أن صار، كما هو الآن، نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد. ولكن بقى بعد ذلك بزمن فى إسبانيا وفى بلاد أمريكا التى كانت تابعة لها»(١).

ثم سار، فى «تحرير المرأة»، مواصلاً موقفه الفكرى الجديد، فنفى أن يكون هذا الحجاب تنفيذا لتعاليم الإسلام، فهو «عادة» لا «شرع».. فقال: «.. إن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها دون بحث ولا مناقشة، ولكننا لا نجد نصًا فى الشريعة يوجب

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٤٤.

الحجاب، على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين، والدين براء منها»[١].

ثم رأيناه يطلب موقفا وسطًا، لا هو تبرج الغرب ومغالاته في عرض مفاتن المرأة، ولا هو الحجاب الشرقي ومنع اختلاط الرجال بالنساء، فيقول: «إن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل.. وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعي، وهو الذي أدعو إليه»[٢].

ومعروف أن الحجاب الشرعي لا علاقة له بمنع الاختلاط، إذ هو يعني ستر جسم المرأة ومفاتنها، عدا الوجه والكفين.. وبعد أن كان قاسم أمين يدافع ـ في «المصريون» ـ عن المجتمع الانفصالي، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الإسلامي، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالي، ويستنكر إمكانية ممارسة المرأة لواجباتها ومهماتها في الحياة، طالما ساد الانفصال بين الجنسين في المجتمع، إذ «كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة؟! إن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين، كما

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٤٣.

نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى، حتى من أهل الطبقة المتوسطة، بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى، والكل مسلمون، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن!»[1].

وبعد أن كان الاختلاط عنده شراكًا، يستخدمها الرجل للإيقاع بالمرأة فى حبائل الحب والعشق والمتعة، أخذ ينفى هذا الفهم السطحى، ويرى قطاعات المجتمع التى يلعب الاختلاط والتحرر فى حياتها دورًا إنتاجيًا ونضاليًا فى سبيل العيش، ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائح التى تتستر بمباذلها خلف الحجاب! فكتب مقررًا «أن نساء العرب ونساء القرى المصرية، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبًا، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللائى لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد. وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة!»[2].

هكذا حسم القضية هذا الحسم الجديد!

وبعد الصورة التى قدمها ـ فى «المصريون» ـ للمرأة الأوروبية والغربية، صورة العاشقة الغانية، والفريسة التى لا تلبث أن تستسلم، سريعًا أو بعد زمن، لإغراء الرجل الساعى لاقتناصها، عاد قاسم أمين عن رأيه هذا فى نساء الإفرنج، فرأى أنهن «يحافظن

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٤٨.
(٢) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٥٩.

على ظواهرهن، على العمـــوم».. [1] وأثنى على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها، وتحدث بإعجاب عن الاختلاط هناك «فنساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعًا بالحرية، وأكثرهن اختلاطًا بالرجال، حتى أن البنات فى صباهن يتعلمن مع الصبيان فى مدرسة واحدة، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم!»[2].

ومع هذا الاختلاط فى الغرب، نهضت المرأة، ونهضت الأمة: «فكل مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك فى أنهن يأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه!»[3].

تلك هى قضية الحجاب.. وموقف قاسم أمين منها.. موقفه القديم كما صوره فى كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م، وموقفه الجديد، والمناقض جذريًا لموقفه القديم، والذى عرضه فى كتابه «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م.

❋ ❋ ❋

تقييد الطلاق

والقضية الثانية التى نقدمها مثلاً حيًا وواضحًا للتطور الفكرى الذى مر به قاسم أمين، هى قضية الموقف من «الطلاق».. وهل هو حق مطلق للرجل.. أم أن الأمر يستدعى تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الإطلاق؟

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٥٩.

(٣) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٨٠.

ذلك أن قاسم أمين، فى كتابه «المصريون»، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة، وغير المقيدة، للرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صوابا.. وهو هنا يستنكر الآراء الإصلاحية التى يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحكم من القاضى بعد بذله الجهد ـ بواسطة التحكيم ـ لإصلاح ذات البين.. وهو يصور موقفه هذا عندما يقول:

«.. غالبًا ما يكون الطلاق علاجًا أسوأ من الداء غير أن له، كجميع الأدوية، موهبة الشفاء فى بعض الأحيان، إنه عملية بتر يذعن لها المصاب كارهًا دائما، مطلقًا صرخات الألم، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت.

وقد رأى المشرع الإسلامى من الضرورى ترك هذه المسألة الخطيرة فى يد الزوجين، يتصرفان فيها بحريتهما، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلهما، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما، وهما يتوليان بنفسيهما مهمة إصدار الحكم على مصيرهما الذاتى.

إننى لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى ليحصل على الطلاق، فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى، كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك. أية محكمة تلك التى تزعم قدرتها على توجيه قلبى وشد وثاقه، وهو المتقلب كثير النزوات؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة؟! إن موضوع هذه القضية هو شخصيتى

الصعبة المعقدة التى تحتاج عدة سنوات من عبقرى مثل (زولا) لكى يفهمها ويحللها ويحكم عليها!»[1].

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا، ويتبنى الرأى المعاكس لرأيه الذى أسلفناه، وأن يكون بالتدريج، فيبدأ بالشكوى من مضار الإسراف القائم والحاصل فى استخدام الرجال لحقهم المطلق فى الطلاق.. فهو قد أصبح «أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة».. ومع ذلك «اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جداً، لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل..»[2].

ثم بعد ذلك يحسم الموقف، فيدعو إلى تقييد الإطلاق الذى يتمتع به الرجل فى إيقاع الطلاق، وينقض، فى «تحرير المرأة»، منطقه فى «المصريون»، فتتبدل المواقف، ويرفع خصومه فى سنة ١٨٩٩م نفس حججه هو فى سنة ١٨٩٤! نعم. يطلب قاسم أمين، فى «تحرير المرأة»، أن توضع القيود على الطلاق.. وذلك من مثل:

١ ـ قيد الإرادة الواضحة والنية الحقيقية على فصم عرى الزوجية..

٢ ـ قيد الإشهاد على وقوع الطلاق.

٣ ـ قيد التحكيم الذى حدده القرآن بهدف محاولة الإصلاح.

٤ ـ قيد جعل إيقاع الطلاق من اختصاص القضاء.

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٢٥.

وفى هذا الأمر يكتب ليقول:

«. . . يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج، وهذا يفرض حتمًا وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة فى أنه إنما يريد الانفصال من زوجته . . وإن لمريد الإصلاح أن يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت، خصوصًا إذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عامًا . . فلم لا يجوز، مع ظهور الفساد فى الأخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاة بالمقاصد، أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الإشهاد شرط فى صحة الطلاق، كما هو شرط فى صحة الزواج، كما ذكره «الطبرسى»، وكما تشير إليه الآية الواردة فى سورة الطلاق، حيث جاء فى آخرها ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (الطلاق: ٢)؟ أليس هذا أمرًا صريحًا بالإشهاد، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل إثباته؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحًا؟ نظن أن فى الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله، ورعاية لمصلحة الناس، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة فى زمان كزماننا هذا، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظامًا لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة، كما هو شأننا اليوم».

ثم يستطرد قاسم أمين ليصوغ مشروعًا بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطلاق، فيقول:

« . . . بل إن أرادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة فعليها أن تضع نظاماً للطلاق على على الوجه الآتى :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد فى الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : إذا أصر الزوج ، بعد مضى الأسبوع على نية الطلاق ، فعلى القاضى أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : إذا لم ينجح الحكمان فى الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية . .
وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وإنما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة

الزوج نفسه! إن وضع الطلاق تحت سلطة القاضي أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج»[1].

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة، فتبنى سنة ١٨٩٩ فكر خصومه في سنة ١٨٩٤م، كما تبنى خصومه في سنة ١٨٩٩م فكره هو في سنة ١٨٩٤!

تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التي نقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هي موقفه من «تعدد الزوجات».. فعلى الرغم من أن كلا من كتابيه «المصريون» و«تحرير المرأة» يشترط قيام الضرورة لجواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة، إلا أنه في «تحرير المرأة» كان أكثر ميلاً لتغليب منع التعدد على إباحته وتجويزه، كما كان كذلك أكثر تنبيهاً على مضاره ومخاطره.. بل لقد تحدث في «المصريون» عن أمور نفى أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد، ثم عاد في «تحرير المرأة» فرآها خطراً يجب لأجلها منع هذا النظام.

فهو في «المصريون» يتحدث عن موقف الشرع الإسلامي من التعدد فيذهب إلى أن الشرع الإسلامي يتحدث إلينا، عن التعدد، قائلاً: «من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة، إنني أنصحكم بذلك من أجل راحتكم، فإذا حدث حادث حطم، لسبب من

---

(١) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٤.

الأسباب، حياتكم الزوجية، فتستطيعون أخذ زوجة ثانية، ويمكن لكم إن ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أورابعة. ولكن، فليكن معلومًا لكم أننى لا أبيح لكم ذلك إلا إذا كنتم مضطرين إليه وخاضعين لضرورات محددة. . . وإننى أفرض عليكم. . أن تعاملوا هؤلاء النساء جميعًا، في كل الأمور، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة، وأن تكون هذه النسوة جميعًا زوجاتكم على نفس المستوى، وأن تقوموا بكل نفقاتهن، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهم أولادكم، فتسهرون على تعليمهم جميعًا بنفس الاهتمام واليقظة. . فإذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة والمتنوعة، وإذا وجدتم أنفسكم فى حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة، وإلا فلا تأخذوا إلا زوجة واحدة، وهذا أفضل. . .».

كما يعرض قاسم أمين، فى هذا الكتاب، لرأى الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييدًا شديدًا، لأنه قد أصبح مصدرًا لشيوع العداوة والبغضاء بين الإخوة المولودين من أمهات عدة، فيرفض هذه الحجة، ويقول «يتخيل الناس، بصفة عامة، أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم، بالضرورة، أن يتبادلوا الكراهية، وأن يتعاركوا صبحًا ومساءً، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث، والمسألة مسألة تعود!!»[1].

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية فى «تحرير

---

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٨٥ ـ ٨٧.

المرأة» تطوراً ملحوظاً . . فهو يقول: «. . لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة، اللهم إلا فى حالة الضرورة المطلقة . . وغاية ما يستفاد من آية التحليل: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ (النساء: ٣) . . إنما هو حل تعدد الزوجات إذا أمن الجور. وهذا الحلال، كسائر أنواع الحلال، تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى، من المنع والكراهية وغيرها، بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح، فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات، كما هو مشاهد فى أزماننا، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة، وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاماً، جاز للحاكم، رعاية للمصلحة العامة، أن يمنع تعدد الزوجات، بشرط أو بغير شرط، على حسب ما يراه موافقاً لمصلحة الأمة . .»[1] .

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد فى العائلات وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد، وهو ما كان ينكره من قبل . . وهو هنا يتحدث عن جواز إصدار تشريع يمنع التعدد مطلقاً، إذا غلبت المفاسد الناشئة عنه فى المجتمع، ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردى والتصرف الفردى كما كان عليه موقفه فى كتاب «المصريون» .

وهو تطور ملحوظ فى فكره حيال هذا الموضوع .

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٩٢، ٩٣ .

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤م، عندما أصدر رده على دوق داركور وما بين سنة ١٨٩٩م، عندما أصدر «تحرير المرأة».. وهو التطور الذى سقنا عليه الأدلة، وقدمنا النماذج والأمثلة التى تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات.

لكن، يبقى سؤال هام لا بد من الإجابة عنه.. وهو:

لماذا كان هذا التطور الفكرى، عند قاسم أمين أساسًا وبالدرجة الأولى، فى تحديد رأى الشرع الإسلامى من القضايا التى كانت مثارة يومئذ بين الباحثين فى قضايا الأسرة والمرأة وشئونها؟ وبالتحديد فى قضايا: الحجاب، والطلاق، وتعدد الزوجات؟

إننا لا نلحظ تطورًا فكريًا بارزًا فى آرائه الأخرى، مثل آرائه فى: الأدب، واللغة، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد، والمنهج، والحضارة... إلخ. والذى لاحظناه هو أن التطور الملحوظ كاد أن يقتصر على الآراء التى حواها كل من «المصريون» و«تحرير المرأة» باعتبارها رأى الشرع الإسلامى فى مشاكل الأسرة وعلاجها.

وأهمية هذا السؤال، ومن ثم أهمية الإجابة عنه، تكمن فى ذلك الرأى والموقف الذى أبديناه من قبل، عندما كتبنا الدراسة التى قدمنا بها (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فقلنا يومها: إننا مع القائلين بأن للإمام محمد عبده مشاركة فى تأليف كتاب «تحرير المرأة»، ولقد قدمنا أدلتنا التى تثبت أن الفصول التى عرضت لرأى الشرع فى قضايا الحجاب والزواج والطلاق وتعدد

الزوجات، بهذا الكتاب، هى للأستاذ الإمام، وليست لقاسم أمين.

لقد رأينا ذلك، وكتبنا عنه صفحات أثبتناها كذلك فى التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين . . ونحن نود أن نضيف هنا:

أن هذه الدراسة التى قدمناها، فى هذا الفصل، عن التطور الفكرى لقاسم أمين، هى دليل جديد يدعم ذلك الرأى الذى سبق لنا أن قررناه.

ذلك أن الحجة التى قدمناها، ودللنا عليها يومئذ، هو أن الفكر الإسلامى المتخصص الذى قدم فى هذه الفصول هو من صنع إمام مجتهد فى الإسلام، ولم يكن فى ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الإدلاء بهذه الاجتهادات وإصدار هذه الأحكام، وأن هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين.

كما أن جوهر حجة خصوم هذا الرأى كان أن قاسم أمين ليس غريبًا عن الشريعة الإسلامية ومباحثها، فلقد درسها كرجل قانون ضليع.

ولكن . . بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكرى . . لنا أن نسأل: هل درس قاسم الشريعة بين سنتى ١٨٩٤م و١٨٩٩م . . أم قبل ذلك بكثير؟ إن المعلوم أنه تخرج فى مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١م، وأنهى دراسته القانونية فى فرنسا سنة ١٨٨٥م . . ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضاء، فى النيابة أو مستشارًا فى محكمة الاستئناف . . فإذا ما جاء فى سنة ١٨٩٤م وقدم لنا فى

كتابه «المصريون» تلك الآراء التى قال عنها إنها آراء الشرع الإسلامى فى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات، كنا مطالبين بأن نقول: إن هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الإسلامى، وفهمه له فى تلك المباحث.. وإذا ما قدم لنا فى «تحرير المرأة» آراء الشرع الإسلامى، فى هذه القضايا، على نحو مناقض لما فى «المصريون» كان لنا، إن لم يكن علينا، أن نؤيد ونزكى قول من قال: إن الفصول التى حواها «تحرير المرأة» عن رأى الشرع فى هذه القضايا إنما هى للأستاذ الإمام محمد عبده، أسهم بها مع قاسم أمين فى تأليف هذا الكتاب.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن هذه الصفحات التى قدمناها عن التطور الفكرى لقاسم أمين، هى دليل جديد يضاف إلى الأدلة التى سبق أن قدمناها ونحن نقدم لأعمال محمد عبده على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بكتاب «تحرير المرأة».. والفضل فى إضافة هذا الدليل الجديد يعود، فى الأساس، إلى استنادنا فى دراستنا هذه، التى نقدمها، على كتاب «المصريون»، الذى ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى، والذى كان الدليل الأول على هذا التطور الفكرى القائم فى آثار قاسم أمين.

حـريـة المـرأة

[هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية.. فشكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية.. ففى الشرق نجد المرأة فى رق الرجل، والرجل فى رق الحكومة.. وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية، فالحالتان مرتبطتان ارتباطًا كليًا.

وافتقار المرأة المسلمة إلى الاستقلال بكسب ضروريات حياتها هو السبب الذى جر ضياع حقوقها، فلقد استأثر الرجل بكل حق، ونظر إليها نظرته إلى حيوان لطيف، يكفيه لوازمه كى يتسلى به!!].

قاسم أمين

إن التعميم فى الحكم على الميراث العربى والشرقى فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرة إليها وتقييم دورها فى المجتمع وعلاقتها بالرجل، ذلك الميراث الذى واجهه قاسم أمين ومعاصروه، عندما فكروا فى دخول هذا الميدان من ميادين الإصلاح الاجتماعى.. إن التعميم فى الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير.

ذلك أن تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا إلى حد كبير فى هذا الموضوع.. فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية، وجدنا للمرأة فى صفوفها دوراً ملحوظاً، نسبيًا، ووجدنا فى فكر هذه الحركات والتيارات حديثًا مشوبًا بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها فى الحياة.. نجد ذلك عند المعتزلة، والخوارج، وبعض فرق الشيعة.

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف، والمهام الأولى للحركات الفكرية هى التبرير لمظالم الحكم وإضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة، والنظر إليها كسلعة من سلع المتعة، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كى تتزين به القصور ويستمتع به الرجال.

ولما كانت الغلبة والسيادة، أن فى هذا الزمن طولاً أو فى الصورة قوة وعلواً، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثانى والتقييم

الأخير، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكرى مليئة بكل ما يحقر المرأة ويغض من شأنها، ورسخ ذلك فى فكرية المجتمع الشرقى، خصوصًا بعد أن طال ليل العصور «المملوكية ـ العثمانية»، حتى لقد غابت من الميراث الفكرى الذى كان الناس يتداولونه أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى فى تراثنا، التى تنصف المرأة وتضع اعتبارًا لدورها الإيجابى فى الحياة.

ومن هنا نستطيع أن نتخيل: أى ميراث فكرى كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظها فى الحرية ونصيبها من المساواة؟! وهذا التخيل أمر ضرورى، لا لتقييم العمل الفكرى والتطبيقى الذى بذله وأنجزه قاسم أمين، فى ذلك الميدان، التقييم الذى يستحقه فحسب، بل ولإدراك: لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله فى هذا الميدان متواضعة جدًا، عندما ننظر لها الآن فى ضوء ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلاً، فضلاً عن الآمال التى ما زالت تسعى فى سبيل تحقيقها على هذا الدرب الطويل.

ونحن نستطيع أن نكشف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التى ورثها ذلك الجيل، فى هذا الموضوع، بالإشارة إلى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهما المجتمع من المرأة:

أولهما: يعبر عن المقولة القائلة «بأن موت المرأة خير من حياتها»، وأن بطن الأرض أكرم لها وللحياة من ظهرها! ويعبر عن هذه المقولة أبو بكر الخوارزمى (٩٣٥ ـ ٩٣٣) عندما يكتب إلى رئيس «بهراء» معزيًا فى وفاة ابنته، فيقول:

«. . . ولولا ما ذكرته من سترها، ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية! فإن ستر العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات! ونحن فى زمان إذا قدم أحدنا فيه الحرمة، فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر، فقد بلغ أمنيته من الصهر! قال الشاعر:

ولم أر نعمة شملت كريمًا كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر:

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا

والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر:

وددت بنيتى ووددت أنى وضعت بنيتى فى لحد قبرى

قال آخر:

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر:

سميتها إذ ولدت: تموت والقبر صهر ضامن وبيت[1]

وثانيهما أى ثانى النصين: هو المعبر عن سيادة المجتمع الانفصالى، وصرامة هذا الفصل بين الرجال والنساء، ويعبر أبو العلاء المعرى (٩٧٣ ـ ١٠٥٧م) عن هذه المقولة عندما يقول:

---

(١) «الهلال» تأبين قاسم أمين. انظر مقدمة ناشر «أسباب ونتائج»، ص ٤، ٥.

إذا بلغ الوليد لديك عشرا

فلا يدخل على الحرم الوليد

وإن خالفتنى وأضعت نصحى

فأنت، وإن رزقت حجى، بليد

إلا أن النساء حبال غى

بهن يضيع الشرف التليد![1]

تلك كانت مواريث الفكر، عن المرأة، التى واجهها قاسم أمين وجيل قاسم أمين.. ومن ثم فنحن نستطيع أن نبصر عمق قاسم أمين. عندما ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة، فى فترات طويلة، حياة الشرق ومجتمعاته.. فلا الإسلام ولا طبيعة الأشياء ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها، هى التى ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة، وإنما هو الاستبداد الذى جعل من المرأة إحدى فرائسه، فكبلها بالقيود والأغلال. ومن ثم فإن تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد، أى بتحرر المجتمع ككل.. وهو يعبر عن هذه الفكرة الهامة عندما يتحدث عن «أن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة، والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على

---

(١) «لزوم ما لا يلزم»، جـ ١ ص ٢٤٧، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجى، طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٤.

اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .. فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية، وبالعكس، فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية، فالحالتان مرتبطتان ارتباطًا كليًا.

«وآن للسائل أن يسأل: أى الحالتين أثرت فى الأخرى؟ نقول: إنهما متفاعلتان، وإن لكل منهما تأثيرًا فى مقابلتها، وبعبارة أخرى: إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية.

انظر إلى البلاد الشرقية، تجد أن المرأة فى رق الرجل، والرجل فى رق الحاكم، فهو ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه! ثم انظر إلى البلاد الأورباوية، تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية، فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل!»[١].

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية، والعمق أيضًا، وعاها قاسم أمين، عندما أدرك أن افتقار المرأة إلى «الاستقلال الاقتصادى»، وبُعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها.. وإدراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج

---

(١) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين»، جـ ٢ ص ١٢٥، ١٢٦.

الاجتماعى الذى استخدمه فى دراسة المجتمع وتفسير التاريخ . .
وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره فى تحريرها ، إذ «لو تبصر المسلمون لعلموا أن إعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها ، هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فإن الرجل لما كان مسئولاً عن كل شيء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ فى نظره إلا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه ، على أن يتسلى به !»[1] .

ذلك هو الميراث الفكرى ، المعبر عن الواقع العملى ، أى وجها العملة المجسدة لوضع المرأة فى المجتمع الشرقى عندما نادى بتحريرها قاسم أمين .

وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية ؛ لذلك الوضع المتخلف الذى كانت عليه النساء فى مجتمعه الذى عاش فيه .

* * *

ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، أن نستدعى إلى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين .

فهى ، اجتماعياً ، لا وجود لها لعزلتها عن المجتمع وقبوعها خلف جدران الحريم . . وكما يقول قاسم أمين : فإنه «ليس بين الأمهات إلا عدد قليل جداً يعرف القراءة والكتابة ، وليس واحدة لها إلمام ، ولو سطحياً ، بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من

(١) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣ .

الفنون، وهى فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا، ولا تدرى شيئًا من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التى تسكنها، فضلاً عن الإلمام بأى شىء من أحوال البلاد الأخرى، وهى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا تجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها. وفى الحقيقة: أنهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة.. باقيات على ما كن عليه تلك الأوقات!»[1].

ولم تكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله، فلم تكن، كما قد يتوهم البعض، ملكة لمملكة المنزل، وإنما كانت مخلوقًا ضعيفًا قد أعد ويعد للاستمتاع أولاً وقبل كل شىء.. وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين:

«وأما من الناحية المعنوية، فهى ـ(أى المرأة)ـ مخلوق متكاسل، ذات طبيعة تأملية، وبعيدة عن الفاعلية، تكثر الحديث والضحك، تحب دينها، لكنها لا تمارسه! ليس لها مثل أعلى، وتتأقلم مع الحياة الواقعية، وهى زوجة نموذجية، وأم حانية، لكنها محدودة المواهب فى التدبير المنزلى!».

فهى مخلوق ذبلت مواهبه وإمكانياته من طول تعطلها وحرمانها من التدرب على ممارسة ما خلقها له الخالق سبحانه! ولقد بقيت لها من هذه المواهب والإمكانيات ما كان متعلقا منها «بالشكل»، فهى على قدر لا بأس به من الجمال «يتجلى على وجه

---

(١) المصدر السابق، جـ١ص ٢٢٧.

الخصوص فى تسب أعضائها، ومتانة الجسد وتماسكه، كم تنتشى العيون التى تتطلع إلى فلاحة جميلة تمشى مستقيمة، بارزة النهدين مثقلة القوام، ممتلئة العينين بالأحلام، طويلة تقريبا، فى كفيها وقدميها دقة رائعة! أما ما تتميز به حقا فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان، حتى ليحسبها المرء عينى «ملاك»، والمعبرتان، حتى ليفهمهما المرء قبل أن تتحدث هى!»[1].

* * *

وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض اللذين قوبلت بهما صيحات قاسم أمين، فإن مطالب الرجل كانت متواضعة، بل شديدة التواضع، إذا ما قيست بما يجب لتحرير المرأة حقا من إنجازات وإصلاحات. ولكن هذه المطالب كانت تمثل ثورة حقيقية وتغييرا جذريا فى فكر المجتمع وأعرافه بالقياس إلى واقع المرأة الذى أشرنا إلى الملمح العام من ملامحه.

* ففى التعليم: لم يطلب قاسم أمين مساواة بين المرأة والرجل فى جميع مراحله.. بل طلب لها فقط المساواة به فى التعليم الابتدائى! وعبر عن مطلبه المتواضع هذا عندما قال:

«... ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم فذلك غير ضرورى، وإنما أطلب الآن، ولا أتردد فى الطلب، أن توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل، وأن يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين».

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٧٨، ٢٧٩.

وهو لا ينسى فى حديثه عن تعليم المرأة أن يميز بين التعليم الجاد الذى يطلبه لها، وهو الذى يصبح فى حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها إيجابية، ويطورها بتطور مجتمعها، وبين ذلك التعليم الذى ليس له من التعليم سوى المظهر والقشور.. ولذلك فهو ينتقد ما كان موجوداً يومها من «تعليم» تتلقاه المرأة، كى تظل به «متعة» أكثر جودة.. فيقول:

«... أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية، وشيئا من الخياطة والتطريز، والموسيقى، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت إليها، وربما زادتهن تلك المعارف غرورا بأنفسهن، فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول: نهارك سعيد، باللغة الفرنساوية، فقد فاقت أترابها، وارتفع شأنها، وسما عقلها، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية، فتقضى حياتها فى تلاوة أقاصيص وحكايات قلما تفيد إلا فى إثارة صور من الخيالات تطوف بها، وتتمثل لها عالمًا لطيفًا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة إلى دخان السيجارة التى تقبض عليها!

أكثر ما تعرفه المرأة، التى يقال الآن إنها متعلمة، هو القراءة والكتابة، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى إليها، وما بقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر، ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شىء. أين

هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى على مطاردة الوهم؟!»[1].

تلك هى حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات... وهذا هو رأى قاسم فى هذا التعليم.. ومطلبه فى تعليم النساء.

* وفى الحجاب: لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذى كان عليه أمرها فى أوروبا يومئذ، ولا على النحو الذى وصل إليه أمرها هذه الأيام.. وهو كذلك لم يطلب إباحة خلوة المرأة بالرجل الواحد، وهو غريب عنها، ليس بمحرم لها.. وإنما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع، وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفها العامة والطبيعية الضرورية، وحبذ الوقوف بالحجاب عند ما هو شرعى منه وفق آراء الفقهاء، ونادى بالاختلاط الذى تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته فى معترك كسب الرزق والحياة.. وعن هذا المطلب المتواضع يقول:

«ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، لكن الحقيقة غير ذلك، فإننى لا أزال أدافع عن الحجاب، وأعتبره أصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها، غير أننى أطلب أن يكون منطبقًا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية، وهو على ما فى تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط، والمبالغة فيما يظنونه

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٦، ٣٧.

عملا بالأحكام، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة.

«والذى أراه فى هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيَّرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعًا من المقتنيات، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية، وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعى، وهو الذى أدعو إليه...»[1].

والحجاب الشرعى هو كشف المرأة وجهها وكفيها عند كل الفقهاء، وأجزاء أخرى من بعض أطرافها الأخرى، عند نفر منهم، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين.

* وفى العمل: تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعًا لتطوره الفكرى إزاء تحرير المرأة.. وهو هنا قد مر بمراحل ثلاث:

١ ـ ففى البداية: وهى مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م كان يطلب تعليم المرأة، ويطلب كذلك أن تظل فى البيت، خاصًا بها ومختصة به، وينتقد اشتغالها، لا «بالوظائف العمومية»، بل «وبالأعمال المدنية» التى يقوم بها الرجال... وهو فى التعبير عن هذه الفكرة يقول:

---

(١) المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٣.

«أنني لا أرى الفائدة التي يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال، بينما أرى كل ما سوف يفقدنه، فإن هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التي يبدو أنهن خلقن من أجلها، كما أن هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع، ولن تزيد من سحرهن، بل على العكس من ذلك. أن مشهد الأم المتفانية يملؤني حنانًا، كما يحرك سروري منظر الزوجة التي تعنى ببيتها، في حين أني لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على في خطى الرجال، ممسكة كتابًا في يدها، وتهز ذراعي في عنف، وهي تصيح بي: «كيف حالك يا عزيزي؟» بل لعلي أشعر بشيء غير بعيد عن النفور.

هل السيدات المؤلفات والسياسيات - (ولست أتحدث إلا عمن اتخذن حرفة الأدب وتجارته) - هل هن حقيقة نساء؟ وما هي أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتي رأين كل شيء، وقرأن كل شيء، وفعلن كل شيء واللاتي لم تعد وجوههن تحمر، وبين تلك الملائكة اللاتي ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة؟!

إنني أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن، ولكنني نصير متحمس لأخذ المرأة قدرًا نسبيًا من التعليم، إنني أنعي تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق، يجب أن تعرف المرأة دائما ما يكفي لكي تلقن أبناءها مبادئ الأخلاق والفضيلة ولتقدم لهم شرحًا علميًا للأشياء التي تحيط بهم، يجب أن تعرف دائما كيف تجيب، دون أن تخطئ، عن تساؤلات الطفولة التي لا تنقطع»[1].

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨١، ٢٨٢.

٢ ـ وفى المرحلة الثانية: مرحلة كتاب «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م، يبقى قاسم أمين على موقفه الرافض تولى المرأة «الوظائف العمومية»، ولكنه يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس، مثل الرجل، «جميع الأعمال المدنية». علاوة على شئونها الخاصة.. ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله:

«إن الناظر فى الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة، مثل الخلافة والإمامة، والشهادة فى بعض الأحوال، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها، وأن الشارع لم يراع فى هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة، وحصر الوظائف العمومية فى الرجال، وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه، إلى الآن، التمدن فى أوروبا ـ (لم تكن المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها السياسية بعد) ـ ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها، وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة فى جميع الأعمال المدنية ـ ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل ـ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق»(١).

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية، إذا تعلمت، لإجادة كل «الأعمال المدنية» التى تجيدها المرأة الغربية.. كما يرى فى ذلك

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٨٢.

عاملاً هامًا ينمى ثروة المجتمع ويدفع بتطوره إلى الأمام، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مستغل، بل لقد أصبحت عالة على ثمرة عمل الرجل.. «فلأن النساء، فى كل بلد، يقدرن بنصف سكانه، على الأقل، فبقاؤهن فى الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم مالا يخفى.

ولا شىء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل، مثل الغربية، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة، إلا جهلها وإهمال تربيتها. ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الأحياء، ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم فى الأعمال الحيوية، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسًا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك، لا كما هى اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها، ولكان ذلك خيرًا لوطنها، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه..»[1].

٣ ـ وفى المرحلة الثالثة: من تطوره الفكرى، إزاء هذه القضية، مرحلة «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م. يبقى قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة «بالأشغال العمومية والوظائف العامة» أى العمل السياسى ووظائفه العليا، ولكنه يتقدم فكريًا عن ذى قبل، عندما يعلل للفروق القائمة بين الجنسين، والتى أهلت الرجل، دون المرأة، لهذه الوظائف السياسية العليا،

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٠، ٢١.

فبعد أن كان يرى ذلك تقسيمًا فطريًا وأبديًا للعمل، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه، وهو الأمر الذى حرمت منه المرأة وأبعدت عنه قرونًا طويلة، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران، وهما فى الإمكان، ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من أسباب.. أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه، فهى التى يقول فيها:

«إنى ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شىء من المزايا والحقوق السياسية، لا لأنى أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية، حجرًا عامًا مؤبدًا، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى، بل لأنى أرى أننا لا نزال إلى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية، وأن المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقاً، ويلزمها أن تقضى أعوامًا فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية..»[1].

هكذا رأى قاسم أمين قضية «عمل المرأة».. وهكذا تطور فكره إزاءها ما بين سنة ١٨٩٤م وسنة ١٩٠٠م.

* * *

والآن.. لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال:

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ١٦١.

أية امرأة تلك التى ركز قاسم أمين حديثه عنها؟

وبنت أية طبقة من طبقات الأمة تلك التى سعى لتحريرها؟

لقد سبق لنا وأثبتنا أن قاسم أمين كان داعية مصلحًا يبشر بقيم المجتمع البورجوازى، ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كى تتطور فتخلف عصر الإقطاع وراءها وتدخل إلى رحاب التنوير البورجوازى . . والآن نقول: إن المرأة التى شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين، هى، فى الأساس، المرأة البورجوازية، امرأة الطبقة التى كان ينتمى إليها، بنت الطبقة الوسطى، التى كانت متميزة عن بنات الأرستقراطية الإقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الانتماء التركى والشركسى والانتساب لعناصر المتمصرين . . والتى كانت متميزة كذلك عن بنات الفلاحين.

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى تعصبًا لطبقته الاجتماعية، ولا انغلاقًا على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل، وإن غلبت عليه رؤية لونها انتماؤه الاجتماعى . . ولكن مبعث هذا الاهتمام أنه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الأرستقراطية الزراعية، فهن مثل طبقتهن غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المصيرية، يعشن كطبقتهن على هامش هذا المجتمع، ولا صلة بينهما إلا صلة الاستغلال الإقطاعى واستنزاف ريع الأرض من الفلاح.

أما المرأة الفلاحة والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف . . فلقد

رآها قاسم أمين عضواً عاملاً فى المجتمع وطاقة منتجة . . صحيح أنها لا تقرأ ولا تكتب . . صحيح أنها غير «متعلمة» . . . ولكن انخراطها فى الحياة العامة مع الرجل ، وفى مساواة له ، قد جعلها «مثقفة» بالخبرة والتجربة ، فهى ليست قيداً على تطور المجتمع إلى الأمام ، وإن تكن لديها طاقات أخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها . . إن بينها وبين الرجل ، فى طبقتها ، مساواة إلى حد كبير !

أما امرأة الطبقة الوسطى فإنها كانت موضع أمل ، بل عليها ـ مثل طبقتها ـ تعلق الكثير من الآمال فى قيادة نهضة الأمة وتطورها . . ومع ذلك فهى وإن «تعلمت» إلا أنها بمقاييس «الثقافة» دون امرأة الريف والحرفيين والتجار فهى الطاقة المعطلة حقًا وتمامًا من بين النساء اللاتى تتعلق بهن آمال المصلحين . . ومن ثم فإن اتخاذ قضية تحريرها محوراً لقضية تحرير المرأة عمومًا هو أمر له ما يبرره ، خصوصًا من مصلح مثل قاسم أمين .

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا إذا قرأنا بعض عبارات قاسم أمين .

فهو فى المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة يقول : «تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن إلا فى الملبس والحلى ، بل يمكن أن يقال : إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها ، وأن آخر طبقة من نساء الأمة ، وهى التى تسكن الأرياف ، هى أكملهن عقلاً ، بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح، مداركهما فى مستوى واحد، لا يزيد أحدهما على الآخر تقريبًا، مع أننا نرى الرجال فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة، بل وقفن فى الطريق، وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معًا»[1].

ثم يعرض لذات القضية، وهو يتحدث عن «الحجاب»، فيقول:

«وإذا أراد القارئ أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب، على وجه لا يبقى للريب معه مجال، فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب «البيانو» ولكنها جاهلة بأطوار الحياة، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها، وأن الثانية مع جهلها، قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها، وأن كل ذلك قد أفادها اختبارًا عظيمًا، فإذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى!»[2].

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم تفدها الثقافة والمعارف والخبرات بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٥٧.

والخبرات الخاصة بالحياة من العمل . . وما ذلك إلا لأن الأولى تعيش مجتمعاً انفصالياً ، عزلها فيه الحجاب عن مصدر المعرفة الحقة ، بينما تساوت الثانية مع رجل طبقتها ، فخاضا معاً غمار الحياة .

تلك هى أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية ، وآراؤه فى إصلاح أمرها .

وهذه هى المرأة التى من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير .

فى التمدن الإسلامى

[يجب أن نرجع إلى التمدن الإسلامى القديم، لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه، بل لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة.. لقد انتفعت به الإنسانية، واستكملت ما كان ناقصًا منها فى بعض أدوارها.. ولكن كثيراً من ظواهره لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية.

إن علينا أن نزنه بميزان العقل، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان.

وعلينا كذلك أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها..].

قاسم أمين

نعنى «بالتمدن الإسلامى»، هنا، تلك الآراء والنظرات التى أبداها قاسم أمين عندما عرض «للدين» الإسلامى، و«الحضارة» الإسلامية، وموقفه من القضية الهامة التى طرحت فى عصره عندما اختلف الناس فى الإجابة عن سؤال: هل نعود ـ ونحن ننهض ونستيقظ ـ إلى منابعنا الإسلامية نستوحيها ونحتذيها، أم نجعل وطننا قطعة من أوروبا فكراً وقيماً وحضارة وعلماً وعملاً؟

وقاسم أمين لم يكن مصلحًا إسلاميًا، وخلفيته الفكرية الإسلامية لا تؤهله لأن يكون كاتبًا إسلاميًا، فضلاً عن أن يكون مصلحًا إسلاميًا.. بل إن طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتى كانا ينأيان به عن أن يكون الكاتب المتخصص والمهتم بأمور الدين، ولكنه كان، مع ذلك، غيورا على الإسلام، تستفزه حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت أعلام الحملة على الإسلام.. ولقد كانت هذه البضاعة رائجة فى عصره، لأنه كان يشهد المد الاستعمارى الأوروبى على الشرق، وهو المد الذى استعان على الغزو ببعض أسلحة الغزوة الصليبية فى العصر الوسيط.

ولعل ذلك هو الذى جعل أغلب حديث قاسم أمين فى الإسلام، ودفاعه عنه يأتى فى كتابه «المصريون» الذى رد به هجوم

دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين . . وفى هذا الكتاب يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

«لست أحب الخوض فى حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتى الخاصة ، وبحرصى على مراعاة اللياقة العامة ، غير أن علىّ فى هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل إننى لأكاد أعتقد أنه هو الذى كان حافزاً على وضع كتابه ، ولهذا فإنى أستأذنه فى أن أخصص له بدورى عدة سطور»(١) .

ونحن إذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الإسلامية فإننا نستطيع ، فى نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلورتها فى عدد من النظريات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه الصواب .

١ ـ فهناك ذلك التقييم الذى قدمه قاسم أمين لشخصية الإنسان المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضارى ، وهو تقييم نختلف معه فيه ، ونراه قد تخلى ، وهو يخطه ، عن عنصر هام من عناصر منهجه الاجتماعى . . فهو فى المنهج يؤمن بوحدة القوانين التى تحكم التطور فى الظواهر الطبيعية والاجتماعية والإنسانية ، ويؤكد ـ كما سبق وعرضنا ـ أن القوانين التى حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورقيها لا بد لها وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين . . ولكنه فى نظراته الإسلامية سلك سبيلاً مناقضاً لمعطيات هذا المنهج ، فتراه يقدم

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٩٦ .

للشخصية الإسلامية صورة تتبدى لها فيها قسمات خاصة تجعلها عصية على التقدم والتطور والارتقاء، وتجعل منها نسيجًا إنسانيًا مختلفًا اختلافًا جذريًا عن غيرها من الشخصيات، فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية إلى ما هو أدخل فى التغاير «الطبيعى» بين المسلم وغير المسلم.

والذى نعتقده سببًا فى ذلك، هو أن قاسم أمين قد جعل ما هو «واقع» «طبيعيًا وأبديًا» وليس «عارضًا» يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها.

فهو مثلاً يقول: «إن للمسلم أفكارًا عن كل شىء، تختلف عن أفكار الأوروبى عن هذه الأشياء، حتى أن ما يلائم أحدهما لا يلائم الثانى إلا نادرًا»[1].

وانطلاقًا من هذه المقولة يصور «شخصية المسلم» تصويرًا يضع يدنا على ملامح «شخصية صوفية» متواكلة وانعزالية، لا تربطها أية روابط بالواقع فى الحياة، حتى أن أحدنا إذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة فى نفسه أو جيرانه، بل وفى ذوات جماهير الناس فى عصر قاسم أمين، فإنه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين. ويكفى لتبيان صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم، حيث يقول:

«المسلم: أولاً لا ينتظر سعادته فى هذه الحياة، إن له، أيًا كان

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٠٥.

فكره، عالمًا خياليًا تذهب إليه أحلامه طواعية، ويفضله على الواقع مهما كان ساحرًا، فهو، عامة، لا يبالى كثيرًا بكل ما يجتذب الأوروبى ويستحوذ على مشاعره، وإذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض السحرية الجذابة، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكانًا كبيرًا فى حياة الغربيين، فإنها قليلة التأثير على وجدان المسلم.

وكما أن المسلم، عامة، لا يقدر السعادة التى يبحث غيره عنها فى هذا العالم، فإنه لا يؤمن بإمكان تحققها على الأرض، ومن هنا يعتكف فى عالم أحلامه التى تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره، عزوفًا عن الثروة وألقاب التكريم ومنابع اللذة التى يعدها أشياء عابرة خادعة، كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم، وهذا ما يجعله يبدو جادًا صموتًا سوداوى المزاج.

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ومساءلته عن وسائل الأداء، ويهرب من العالم، لأنه يعد إغراءاته حافلة بالمخاطر، ولا يهوى كثرة الكسب حرصًا على ضمان شرف الوسائل، وهو فى الواقع يحمل احتقارًا عميقًا لهذا المعدن الخسيس - (الذهب، النقد) - ولعله لهذا ينفقه دون ندم، وقد ضاعت ثروات كثيرة من المسلمين فى اندفاعهم لنجدة إخوانهم، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود؟ وإذا كان كثير من المسلمين يقترضون بالربا، فلست أعرف مسلمًا واحدًا يقرض ويأخذ ربًا على ذلك، ولعل الشىء الذى لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى فى اللذة الجنسية إلا إشباعًا سفيهًا لإحدى

الحاجات الجسدية، حتى أن فنون الهوى التى أبدعها العشاق العباقرة، والتى يهتم بها الغربيون، لا تحدث أثرًا فى نفوس المسلمين الأتقياء»[1].

هكذا صور قاسم «الشخصية العامة» «العامة» المسلمين.. وهى صورة أقل ما يقال فى نقدها: إنها أخذت ما هو جزئى ونادر وشاذ، فجعلته عامًا وصورته على أنه القسمات الأساسية للشخصية الإسلامية، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون بصورة يرسمها «سائح» عابر سبيل، رغم أنها قد جاءت فى كتاب يرد به قاسم على «سائح» وينتقد فيه منهج «السائحين» فى رسم الصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التى فيها يسيحون!

٢ ـ أما الإسلام، كدين، فإن فهم قاسم أمين له كان فهمًا بسيطًا وجيدًا فى ذات الوقت.. فهو يرى أن الكثير مما أضيف إلى الدين، بمرور العصور، الدين منه برىء، فالجانب «الدينى» فى «الحضارة الإسلامية» محدود ومحدد، لأن الإسلام، كدين، عند قاسم أمين، هو حركة إصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التى سبقته إلى الظهور، وبعبارته هو: «يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت دينية بأقل مما كانت سياسية، فمن وجهة النظر الدينية البحتة، أراد النبى، ببساطة، إصلاح المسيحية، بإنقاذ وحدانية الله التى غرقت فى الثالوث الغامض والعصى على التفسير، كما أراد إدانة

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٠٨، ٣٠٩.

الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والإغريقية»[1].

هكذا، ببساطة وعمق، الإسلام كدين.

وعلى الذين يلتمسون هذا الدين البسيط أن يذهبوا إلى مصدره الأوثق: القرآن، ثم إلى قلة من الأحاديث الصحيحة التى تجمع عدة شروط: شرط الصحة رواية.. وشرط تعلقها بأمور الدين، بأن تكون تفسيراً لمجمل فى القرآن مثلا.. وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح آياته.. أما ما عدا ذلك من الأحاديث، حتى ما صح منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شئون الدنيا، فهو ليس من الدين.. ذلك «أن أقوال النبى لا تشكل جزءاً من الدين، ومن الطبيعى أن ننحى من هذه الأقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية، والحكم الفلسفية التى تتضمن، دون شك، نصائح قيمة، ولكنها لا تشكل التزامات وواجبات دينية... كما يجب أن ننحى أيضاً كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع، وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل التوجيهات التى يتضمنها القرآن الكريم، والتى لا تعد جزءاً من الدين إلا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه..»[2].

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٢٦.

والعلماء، حتى من اختلف مع أصوله ومعطياته، إذ «لم يحدث فى أية لحظة من تاريخ ديننا الإســـلامى أن ثارت حـرب ضـد العلم، وقد عانى من أشد النظريات مادية، فلم يسىء أبدًا معاملة واحد من العلماء، وقد أذن لكل المعتقدات أن تحيا جنبًا إلى جنب»(١).

ومن هنا، ولهذا الفهم المستنير الذى فهم به قاسم أمين الدين الإسلامى، كـانت إشارته الهامة إلى تلك الإمكانيات غير المحدودة المفتوحة أمام انتشار الإسلام فى أوروبا.. فالنهضة والاستنارة والعقلانية التى سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع أهلها إلا دين يتميز بهذه البساطة والعقلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد فى الغيبيات.. وهذا الدين هو الإسلام.

ولقد كان قاسم أمين، برأيه هذا، يشارك عددًا من المستشرقين والأوروبيين الذين دخلوا الإسلام، وآخرين منهم لم يسلمـوا ولكنهم رأوا الإصلاح الدينى البروتستانتى هو استعارة واستفادة جزئية من روح الإسلام وتعاليمه، وأن خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سيدفع بمستنيريها شيئًا فشيئًا إلى الإسلام.

أما عباراته التى صاغ فيها فكرته هذه فهى التى تقول:

«إننى أبعد ما أكون عن التعصب، غير أننى أعتقد أن الإسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة فى عقيدة

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٢٥.

واحدة؛ ذلك أن الإسلام ببساطته، وباختفاء الصوفية من نصوصه، وبإيجابيته الخلقية، وإمكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات، وبتسامحه الكبير الذى يتميز به، يجمع، فى رأيى، مؤهلات تكفى لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله، وذلك هو ما أعتقد أنه الحلم الذى كان يطمح إليه القرآن، والذى أوشك أن يتحقق فى إحدى اللحظات؛ ذلك أنه دين الفطرة فى شكله البسيط، المؤهل لإرضاء الجزء الأعظم من البشرية التى لا تستطيع، رغم كل شىء، أن تقبل الحياة دون أن يعشش فى وجدانها أمل خيالى رائع![1].. إن الإسلام الذى ظل طويلاً يمثل القوة والنور فى العالم كله، لا يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة، وأن يعيد إيقاد الشعلات المنطفئة!»[2].

هذا عن الإسلام كدين.

٣- ويدرك قاسم أمين كيف شوّه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الإسلام.. وهذا الواقع البائس يتمثل عنده فى «الفقهاء ورجال الدين».

صحيح أن الإسلام ليس به «سلطة دينية»، ومن ثم فليس به ما يسمى «رجل الدين»، وكما يقول: «فإننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التى تسمى الكنيسة، وليس هناك شىء يمثل السلطة

---

(١) المصدر السابق. جـ١ ص ٣٢٨.
(٢) المصدر السابق. جـ١ ص ٣٣٨.

الدينية وسطنا، إن كل مسلم هو نفسه سلطان روحه، وليس لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية، وليس لهم من السلطة إلا ما نعترف به نحن لمعارفهم»[1].

ولكن هذا المبدأ الإسلامى الجوهرى الرائع شىء والتطبيق الواقعى شىء آخر، فكما قلدنا الأمم والديانات الأخرى فى أمور كثيرة، قلدناهم فى ظهور فئة من «علماء» الدين، امتهنوا الدين مهنة، فتحولوا، عمليًا إلى «رجال» دين! ثم كان لهم، تاريخيًا، الدور المعوق للتقدم الحضارى للمسلمين، كما يقول قاسم أمين مصورًا الدور السلبى الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا الحضارى.. «فلقد أسست المدنية الإسلامية على الأساس الدينى والأساس العلمى. ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته، وكانت أصوله ضروبًا من الظنون لا يؤيد أكثرها بشىء من التجارب، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين، فتغلب الفقهاء على رجال العلم، ووضعوهم تحت مراقبتهم، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية، وانتقدوها.. وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه، وانتهت بهم الحال إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية، بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها إنها لا بد أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، فقرروا أن ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لأحد أن يخالفه!»[2].

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ٢٠٤.

وإذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحى حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر، وفعل فعله فى عدد عديد من الدوائر الفكرية، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثير من فقهائنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الدينى الرسمية . . وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء، عندما يقول:

« . . تلك هى الحال التى تردى فيها بعض شيوخنا، الذين كان عليهم أن يقدموا لنا وصفًا تفصيليًا عن السماء والجنة والنار توحى لنا دقته بالإيمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية، بينما هم يجهلون كل شىء عن الأرض! وليس فى هذا ما يثير الدهشة؛ ذلك أنهم بدلاً من أن ينظروا إلى العلم السماوى بوصفه قمة جميع العلوم، تجدهم لا يجمعون المعارف الأولية التى يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية، ولا يوسعون أبدًا نطاق دراساتهم، ولذلك فإن هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة ناطقة، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليل، وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها، وينصِّبون من أنفسهم حماة الرسالة النبوية، ويدَّعون السهر على حفظ الدين وعلى نقائه وحسن تطبيقه . . إن هؤلاء ليسوا إلا أدعياء شديدى الوقاحة، يختنقون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث، ويدسُّون الوصايا الزائفة، ويبتكرون الحيل للإفلات من قسم أو التحرر من أحد الواجبات الدينية . . إننى أعلن، مع ذلك، ضرورة إدخال إصلاح محدد يتمثل فى تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعارف منطقية وعلمية، حتى يستطيعوا بوساطة التعليم أن

ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التى تهدد بخنق الدين، وأن يرشدوهم إلى طريق العودة إلى بساطة قواعد الإسلام الخمسة، فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الإسلام فى جميع أرجاء العالم، ولا تزال وحدها قادرة على إنقاذه من كارثة مدمرة. . . »[١].

٤ ـ أما الحضارة الإسلامية، وبالذات التنظيم السياسى فى هذه الحضارة، فلقد اختلف إزاءه موقف قاسم أمين، أو تغير وتطور فى تقييمه لهذا الجانب من جوانبها. . ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتى بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كبديل للتخلف، وأيضًا كبديل للأخذ بالنمط الأوروبى الذى جاء إلى الشرق فى ركاب الغزاة؟

فنحن نلمح قاسم أمين فى مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م يميل إلى وجود «تنظيم ونظام سياسى إسلامى»، كقسمة فى حضارتنا الإسلامية، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم إلى تطابق نظامهم السياسى مع تعاليم دينهم، فلما أهملوا تعاليم الدين انهار كل البناء. . فالعيب هنا، كما يراه، ليس فى النظامات السياسية. . فهو يقرر «أن المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسى إسلامى، وخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقين مع الأخلاقيات والوصايا الإسلامية التى بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا عنها، ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٢٦ـ٣٢٨.

الإسلامى لوضعت إهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك. . . .»[1].

ولكنه يرجع عن هذا الرأى فى مرحلة كتابيه «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩م و«المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠م، فينكر أن يكون المسلمون قد عرفوا النظامات السياسية أصلاً فى مجتمعاتهم وتاريخهم، ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمرأة فى تاريخهم إلى افتقادهم هذه النظامات . . فيقول مثلاً:

«تجردت الجمعيات الإسلامية (أى المجتمعات)، على اختلاف الأزمان والأماكن، من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائمًا. . وأساء حكامها فى التصرف. . بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة، ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبيتهم. . . .»[2].

ثم يعود إلى تقرير الفكرة فى مرحلة تالية ومكان آخر فيقول:

«. . . وأما من جهة النظامات السياسية، فإننا مهما دققنا البحث فى التاريخ ـ (الإسلامى) ـ لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظامًا، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم موظفين غير مقيدين . . ربما

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٦.

يقال: إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن بايعه أفراد الأمة، وإن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر.

ونحن لا ننكر هذا، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هى سلطة لفظية، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر.

ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية، ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى إدارة شئونها.

وأغرب من هذا، أن أمراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها، بل تركوا حق التعزير إلى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء، مع أن بيان الجرائم وعقابها هو من أوليات أصول العدالة.

ولست محتاجًا أن أقول: إنهم ما كانوا يعرفون شيئًا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. فإذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى، فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها؟!»[1].

ونحن نعتقد أن هذا التقييم الذى أعطاه قاسم أمين لقسمة

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٠٦، ٢٠٧.

النظامات السياسية فى حضارتنا هو تقييم ظالم وغريب، قد جانب صاحبه الصواب . كما نعتقد أن أهم الأسباب التى تكمن وراء ذلك هى :

أ ـ أنه لم يفرق ويميز بين «الحضارة» وبين «التاريخ» ففى حضارتنا فكر سياسى، وضع قواعد للشورى، وأشار إلى هيئات تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه، وحدد قواعد الفصل بين السلطات، وأعطى توصيفًا وتحديدًا رائعًا للجرائم والعقوبات .

ويكفى أن ندل على خطأ قاسم أمين ـ هنا، وهو ينفى أن يكون المسلمون قد وضعوا قانونًا يحدد الجرائم والعقوبات ـ بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الإسلامى، عندما أشار فى كتاب «المصريون» إلى أصالة هذا الفقه، ووصفه بأنه «أعظم نصب أقامه العقل البشرى»، ونفى أن يكون منقولاً عن القانون الرومانى، وأكد «أنه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ»(1) .

لكن قاسم أمين نظر فى «التاريخ»، والتاريخ السياسى بالذات، فوجد قسمة الاستبداد الفردى بالحكم تغطى المساحات الشاسعة من قرون الحكم الإسلامى والبلاد الإسلامية، ثم هو لم يميِّز بين تراث هذه الأمة الحضارى وإبداعها فى السياسة والنظم السياسية والتشريع وبين حيلولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق .

---

(1) المصدر السابق، جـ1 ص 319 .

ب ـ لم يلتفت قاسم أمين إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التى استمرت طوال عصور التاريخ الإسلامى تجاهد كى تضع فى التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرى فى القانون والشورى والعدل الاجتماعى . . ولو أنه التفت إلى دراسة هذه القسمة لرأى أشياء أخرى مشرقة تقف إلى جانب ظلمات الحكم الاستبدادى الذى عرفه هذا التاريخ .

ج ـ وأخيراً . . فلو أتيحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة فى الفكر الاقتصادى ، وما كتبه علماؤها فى (الأموال والخراج) لرأى جذوراً عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحًا نحو العدل والإنصاف ، ولما قال إن المسلمين «لم يعرفوا شيئًا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية» .

بل لو قد اطلع على قوائم عناوين تراثنا فى الفكر السياسى والاقتصادى ـ قوائم العناوين فقط ـ لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام!

٥ ـ أما قسمة «الفكر الاجتماعى» فى الحضارة الإسلامية والتمدن الإسلامى ، فإن قاسم أمين يعجب بها كل الإعجاب ، كما أن رؤيته لها تستحق هى الأخرى منا التقدير والإعجاب .

فهو يرى أن الإسلام يتميز بالانحياز إلى «نوع من الجماعية» و«الاشتراكية» قد أقامه على رفض «الفردية» التى أشعلت بغضاء الصراع الطبقى فى المجتمعات الأوروبية ، وعلى استبدال هذه «الفردية» بتقرير «اشتراك» الفقراء فى الأموال التى هى فى حوزة

الأغنياء . . وبسبب من هذه الفلسفة التى هى محور الموقف الاجتماعى للإسلام ، فإن «العمل» هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادى ، وإن الشعار - الاشتراكي - القائل : «من كل حسب عمله» ، هو شعار إسلامى تمامًا ومقبول من المسلمين بالتأكيد . . وبسبب من هذه الفلسفة أيضًا فإن الإسلام يرفض الحواجز الطبقية التى عرفتها وتعرفها المجتمعات التى فرقتها الملكية والامتيازات إلى طبقات ثابتة ، كما يرفض أن تكون الوراثة أو الثروة معيارًا يحل محل العمل فى كسب الجاه والنفوذ .

«فالإسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد أو الثروة وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام . . فليس من العدالة أن تكون صدفة الميلاد فى إحدى البيئات مصدرًا لوضع متميز . . لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين ، والقائل : (من كل حسب عمله) وسيبقى ، دائمًا شعارنا ، أننا جميعًا أبناء أعمالنا . . لقد نظم الإسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء . . وهذا - كما هو واضح - حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية .

أو لا ترى مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح وما يهدئ جميع الخواطر ؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سموًا وأقرب إلى الواقع العملى من تلك النظم التى تتحدث عنها أوروبا ، والتى يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها ؟ إننى أشهد فى أوروبا نفوسًا حائرة ، وعقولاً قلقة ، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ، ويصرخ الفقراء ، وتتراءى أعراض زلزال هائل

رهيب . . إن أى مجتمع إسلامى لا يمكن أن يقوم إلا على تنظيم ديموقراطى، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والإخاء . . ولا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية، فى أوروبا، والتى تفصل بين الأغنياء والفقراء، بين النبلاء والعامة، فالكل داخل فى الكل، وامتزاج الطبقات كامل.

أو يمكن بعد أن يعرف الإنسان كل ذلك أن يتذوق شيئًا آخر ويحبه؟!»[1].

فهو هنا لا يسوى بين «جماعية الإسلام واشتراكيته» وبين نظيرهما فى الفكر الأوروبى، بل يميز بينهما، ويفضل المنطلق الإسلامى لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته ـ فلسفة الإسلام ـ فى هذا الميدان.

٦ ـ وأخيراً . . نأتى إلى تلك النقطة الهامة فى فكر قاسم أمين عن «التمدن الإسلامى» . . والخاصة بالموقف من «نوع» الحضارة التى يدعو إليها قومه، ويحبذ أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف «المملوكى ـ العثمانى»، ويشيد باعتمادها نمطًا للتقدم والتطور.

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمراراً لعصر اليقظة والنهضة والتجديد الذى بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر . . ومعلوم كذلك أن دعاة النهضة كانت تتوزعهم دعوتان أساسيتان:

---

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٩، ٢٦٢.

الأولى: ترمى إلى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملاً، وتستهدف جعل مصر ـ ومن ثم الشرق ـ قطعة من أوروبا.

والثانية: ترمى إلى الاستفادة من «أدوات» النهضة والحضارة الأوروبية، مع جعل منطلقاتنا عربية إسلامية، وطابعنا عربيًا إسلاميًا، وبناء حضارة عربية إسلامية معاصرة ومتطورة، تتميز كثيرًا عن حضارة الأوروبيين.

ولقد بدا قاسم أمين ميالاً ـ وإن يكن فى تردد شديد ـ إلى التيار الثانى، ثم عاد فانخرط تمامًا فى سلك دعاة التيار الأول.

فهو فى مرحلة كتابه «المصريون» سنة ١٨٩٤م يقارن بين الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الإسلامية، ثم يحكم بأن الظفر إنما هو من نصيب الحضارة الإسلامية الأصيلة. يقول: إنه «إذا كانت توجد اليوم حضارة إسلامية خالصة إلى جانب الحضارة الأوروبية، فإن الأصالة هى الظافرة»(١).

ثم يعود فيتردد فى الاختيار بين الحضارتين، وخاصة عندما يكون المقام خاصًا بالحديث عن «الاختيارات» والبدائل المطروحة أمام النهضة المصرية.. يتردد، ولكنه ينبه إلى أن مصر قد اختارت، بالفعل، النمط الأوروبى، وأن العودة منه تكاد تدخل في عداد المستحيلات.. ذلك أن أمام مصر «طريقين: العودة إلى تقاليد الإسلام، أو محاكاة أوروبا»، وقد اختارت الطريق الثانى.

«وليس علىَّ أن أحكم على جدارة هذا الاختيار، لقد مضت

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٠٥.

فى أثر حركة الحضارة الأوروبية التى تجتاح كل مكان، والتى تبدو استحالة مقاومتها.. أنها قد خطت اليوم بعيداً فى هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه، إن مصر تتحول إلى بلد أوروبى بطريقة تثير الدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبى، إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا صداها هنا»[١].

وفى مرحلة كتاب «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م يحسم قاسم أمين هذا التردد، وذلك عندما يقرر أن التمدن الإسلامى ليس فيه، حضاريًا، ما يصلح للعطاء المعاصر وأن دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة التاريخية، للتقييم، وكشف الجذور، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تتكرر.. أما طريق اليوم والغد فلا علاقة له بهذا النمط الحضارى الذى ساد فى تلك العصور.. يقول:

«إنه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الإسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه، لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الإنسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها فى بعض أدوارها، ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية.. يجب علينا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم، ونرجع إليه، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثالاً ما كان فيه

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٦٣.

سواء بسواء، بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان...».

ثم يزيد الأمر وضوحًا عندما يقول:

«إن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعًا لمحاربتها، لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن إنشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا، ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا، فهو صورة من صور الاتكال على الغير، كأن كلامنا يناجى نفسه قائلاً لها: اتركى الفكر والعمل والعناء، واستريحى فليس فى الإمكان أن تأتى بأبدع مما كان!

* * *

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه، وليس له من دواء إلا أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصلها وفروعها وآثارها!»[1].

تلك هى أفكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه «التمدن الإسلامى».. وهى أفكار ونظريات جمعت بين ما هو خطأ وما هو صواب، وشهد بعضها تطورًا من الصواب إلى الخطأ أو من الخطأ إلى الصواب!

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩.

مصر.. والمصرية.. والمصريون

[إن المصريين ـ مسلمين وأقباطًا ـ ينتمون إلى جنس واحد.. والمصرى لا يرهب الموت ولا الآلام، غير أنه يحتمل بعض الإهانات؛ لأن السلطة أفقدته وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها! إنه لا تنقصه القوة الجسدية ولا الطاقة المعنوية.. إن ما يحتاج إليه هو النهوض والتوجيه السليم، لكى يصبح قوة عظمى.

وليس يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه، ولا أن يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضبًا ممزوجًا بالأسف والحنو..].

قاسم أمين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متحد . . فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة، لأن المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا، وليسوا وافدين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين أو سيئى النية!

وهو يؤمن كذلك أن اختلاف المصريين فى الدين لم يكن له تأثير فى يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الراسخة، تلك الوحدة القائمة على قسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التى تجمعهم جميعًا بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات . . فعنده أن «من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن، وخاصة فى الريف، ليسوا من نسل العرب، وليسوا عربًا إلا باللغة والدين، وتكفى ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس النماذج القبطية، وإننى أؤمن ـ وهو ما تؤكده الملاحظة أيضًا ـ أن المسلمين المصريين ليسوا إلا أقباطًا اعتنقوا الدين الإسلامى.

ويشكل المسلمون والأقباط ـ رغم اختلاف الدين ـ كلاً متناسقًا يتحدث نفس اللغة، ويرتدى نفس الثياب، ويمارس نفس العادات، ولم يحدث قط ـ منذ بدأوا يعيشون معًا جنبًا إلى جنب ـ أن وقع بينهم خلاف جاد. لقد ربطت المآسى المشتركة بينهم بعاطفة وطنية، جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق

الاختلافات الدينية، ويكفى أن نذكّر هؤلاء الذين يتمنون فصم وحدتنا، بأن الأقباط أثناء ثورة عرابى كانوا يسيرون مع المسلمين يدًا فى يد، وأنه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك القلق فى قلب قبطى، بينما وصف المسلمون الأتراك والشركس بأنهم أعداء مصر!»[١].

فنحن هنا بإزاء شعب واحد، تربط أبناءه جميعًا روابط الوطنية بمعناها الحديث.

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التى شهدتها مصر منذ حكم محمد على فى تكوين هذا «الوطن» المصرى الحديث.. ففى ظل هذه النهضة قامت «الدولة المدنية» الحديثة، وبرزت «حقوق المواطنة» لكل المصريين كرباط يعلو على غيره من الروابط الاعتقادية.. وفى ظلها كذلك أطلق العنان، إلى حد كبير، لملكات الإنسان المصرى فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضارى العريق فى كل الميادين.. وبسبب كل ذلك عرف الإنسان المصرى معنى الافتخار الوطنى والاعتزاز بالوطن، مما جعله يقارن نفسه ووطنه بأرقى الأوطان دون أن تحول عقد النقص بينه وبين الاعتزاز بما له من طاقات وما أحرز ويحرز من إنجازات.

«... فيوم تشكل الوطن المصرى، أو وطن المصريين على يد محمد على الطيبة، لم يبخل المصريون بدمهم فى سبيل أن يضفوا على وطنهم أروع بريق ممكن.. إن المصرى ليس جبانًا

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

البتة، وإنه لا يرهب الموت ولا الآلام، غير أنه يحتمل بعض الإهانات، لأن السلطة أفقدته وعيه، حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها. إنه لا تنقصه القوة الجسدية، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية، إن ما يحتاج إليه هو النهوض، والتوجيه السليم لكي يصبح قوة عظمى»[1].

وإن تلك الإهانات والمظالم التي توقعها السلطة الجائرة بالإنسان المصرى، يجب ـ في رأى قاسم أمين ـ ألا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن إدراك الجوهر الحقيقى والرائع لذلك الإنسان المصرى الأصيل.. فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام، ولكنه أبدًا لا يغيب ولا يذوب ولا يزول.. «صحيح أننا لا نزال نعرف شقاء كبيرًا في ريفنا، فالفلاحون والأطفال يعيشون في حالة حرمان من النظافة وفي إملاق مثير للشفقة.. غير أنه تحت هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفًا دائمًا، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم، وغالبًا ما تشمخ فوق هذا الجسد ـ كما تشمخ الزهرة ـ رأس ذكية!»[2].

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين إلى أن يدعو قومه إلى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف إصلاحه وتطويره، وما بين ذلك النقد الهادف إلى الاستعلاء

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق، جـ١ص ٢٥٦.

على الوطن والبراءة من الانتساب إلى «المصرية»، فقال قولته الرائعة:

«إنه لا يباح لإنسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه، ولا أن يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضبًا ممزوجًا بالأسف والحنو!».

وهذا «الغضب» يعني عنده أن ننهض نحن «بانتقاد عيوبنا بأنفسنا، وعدم إخفاء شيء منها، حتى لا نغفل عن تلافيها، إن ذلك أولى من أن يلقيها يومًا في وجهنا عدو لنا!»[1].

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن وأهله، محتجين بأن لهم أصولاً ـ تركية أو عربية ـ غير مصرية، فإن قاسم أمين يسخر منهم ويهاجمهم، ويراهم خارجين على الواجب الذي يقتضي احترام جوهريات القومية وقسماتها الأساسية.. يقول: ذلك «لأن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية، مثل: الدين، والوطن، والسلطة العمومية، والعائلة، والعلم، والفضيلة، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع.

ونحن معاشر المصريين، ويا للأسف، لا نحترم وطننا، ولا نعرفه، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال. وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب في

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٢٤.

الحقيقة لنا، حتى أن كلمة (فلاح) التى كان الأتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى، اتخذها المصريون عنوانًا على احتقار بعضهم بعضًا.

ومن هذا القبيل أيضًا نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم، ولم يبق لهم أمل فى العودة إليها، يجتهدون دائمًا أن يثبتوا أنهم من أصل تركى أو سورى أو عربى، ولا يكادون يعترفون ـ وخصوصًا أمام الأجانب ـ أنهم من أبناء البلاد التى يرتعون فى خيراتها ويعيشون من نعيمها.

وبديهى أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب إليه، كما يدفع المتهم نسبة الجناية إليه عنه!»[1].

وهذا الحس المصرى الصادق الذى تميز به قاسم أمين، لا تجد فيه شائبة تشير إلى أصله التركى ـ كما هو واضح من عباراته السالفة ـ بل إنه يؤكد أن التعلق «بالتركية والأتراك» هو محض وهم، لأن العناصر التركية التى استقرت بمصر قد ذبل دورها، وفقدت دورها المستقل فى المجتمع، «فهذا الجنس قد انكمش الآن، أو ذاب فى المصريين»[2].

كما أن هذا الحس الوطنى الصادق لم يجعله يتخذ الموقف

---

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٨.

«المتعصب» الذى ينكر مزايا الآخرين.. فهو يذكر لبعض الأوروبيين الذين خدموا مصر، فضلهم فى تنوير أهلها وخدمة مرافقها ومشاركتها السراء والضراء[1].

ويذكر للأتراك - رغم مأساة احتلالهم للبلاد وظلمهم لأهلها - ما استفادته منهم «الأمة المصرية» فلقد «وجدت فيهم إنسانية راقية، فاقتبست منه بالمعاشرة والمصاهرة: النظافة، وترتيب المسكن، والتفنن فى الملبس والمأكل، وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية..».

ويلفت النظر إلى ظاهرة تفضيل المصريين الزواج من التركيات، ويرجعه إلى نظافة المرأة التركية وذكائها وكفاءتها كزوجة[2].

وكما وجه نقده لنفر من المصريين المنحدرين من أصول غير مصرية، وإلى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم الأول «جمع الثروات فى أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك» عن مصر، دون أن «تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية» تراه كذلك قد تنبه للدور «الطفيلى» الذى قام به اليهود فى استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيفوا إليه إنتاجًا يوازى ما يحصلونه من أرباح، فيقول عنهم: إن «اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان - (فى مصر) - استفادة، فهم - عدا استثناءات قليلة - لا ينتجون شيئًا، ويجنون مع ذلك أرباحًا كثيرة»[3].

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ١٦٦.

(٣) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٥٨.

وهو بذلك يدرك وينبه إلى حقيقة أنهم إنما يهتمون بالكسب من المهن «الوسيطة» و«السمسرة» و«العمولات»، ولا يقبلون على المخاطرة بتوظيف أموالهم فى مشاريع الإنتاج.

* * *

وبسبب من ذلك المفهوم الحديث الذى أعطاه قاسم أمين لمصطلح «الوطنية».. ولتحديده أن الوطن المصرى قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلاقتها فى ظل النهضة الحديثة التى أقامتها تجربة محمد على.. لكل ذلك كان تقييمه لهذه التجربة أمرًا يستحق منا إلقاء بعض الأضواء.

ويزيد ذلك الأمر أهمية أن قاسم أمين هو واحد من مدرسة الإمام محمد عبده الفكرية، ولقد كانت لمحمد عبده آراء فى محمد على وتجربته شوهت الكثير من إيجابيات تلك التجربة، بسبب ذلك الصراع الذى قام بين الأستاذ الإمام وتياره الفكرى وبين الخديو عباس حلمى والأسرة الحاكمة.. ومع ذلك فإن قاسم أمين قد قيّم تجربة محمد على تقييمًا إيجابيًا، وكان منصفًا فى عرض منجزاتها الوطنية كل الإنصاف.

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التى ظهر فيها «الوطن المصرى الحديث».. والمناخ الصالح الذى أظهر الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطنى المصرى.. ويرى فى القسمة الاستبدادية وحكم الفرد الذى ظل يمارسه محمد على السلبية الأساسية التى شابت روعة هذه التجربة الحضارية.

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر فى عهد محمد على، وبين ما أصاب هذه التجربة، بعده، على يد خلفائه الذين فرطوا فى الميراث الغنى الذى خلفه لهم مؤسس هذه التجربة.. وإن كان لا ينسى أن يذكر للخديو إسماعيل فضله على التعليم والرى والإنشاءات، وإنجازاته الشورية والدستورية، وهو الفضل والإنجازات التى غطاها التبذير وما جره على مصر من ديون خلقت النكأة للأجنبى كى يطمع فى احتلال البلاد.

كما استطرد قاسم أمين، فى تقييمه تجربة مصر الحديثة، إلى الحديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢م)، فرآها ـ وهو الإصلاحى الرافض للثورة كطريق للتغيير ـ خطأ دفع إليه تعجل الأمة تحقيق الإصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد[١].

إنه ليكفى فى الدلالة على الموقف الإيجابى، لقاسم أمين، فى تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه أنه قد حكم بالإدانة على كل فترات تاريخها ما بين عصر ازدهارها زمن الحكم العربى الزاهر، وهذا العصر الذى قام فيه حكم محمد على.. وهو فى كل ذلك يقول:

«لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية من كل البلاد ومن كل الأنواع.. فى الفترة الحزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على.. لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد على تصبح أكثر انتظامًا

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٧٣، ٢٧٤.

واعتدالاً، ففتحت المدارس، وانتظم التجنيد فى الجيش، وأنشئت الأساطيل، وتفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة، وأخذت تتطور جميعًا، وحفرت القنوات، وعبدت الطرق، وفى كلمة واحدة: أقيمت حكومة حقيقية.

صحيح أن بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من آن لآخر، غير أن الناس كانوا سريعى المغفرة لمحمد على، وكانت الإنجازات الطيبة التى يحققها والتى يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة، وكان يُنظر إليه كوالد شديد القسوة، لا يدرك الفارق بين التأديب وإساءة المعاملة!

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العلوم والفنون ولحكم أنفسهم بأنفسهم وكانت التجربة فى صالحهم ولخيرهم.. وقد أدهشوا العالم الذى ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة وينتصرون[1].

«إن مصر قد أيقظها ـ بعنف ـ من نعاسها الثقيل رجل عظيم منذ نصف قرن، وأذاقها رحيق العلوم، فأخذت تتمثله فى نشوة، ومن يومها وهى مقبلة على التعليم، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق، وهى تتجه إليه فى خطى وئيدة، ولكنها ثابتة ودءوبة..»[2].

* * *

(١) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٣٨.

هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر، وطنه الوحيد..
وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التى نشأ فيها «الوطن» المصرى و«الوطنيـة» المصرية بمعناها الحـديث. ولعل فى نصـوصـه الواضحة والحاسمة التى قدمناها هنا ما ينفى أية شبهات يحاول البعض إلقاءها على هذا الجانب من تفكيره.

فى الوطنية

[إن التمدن الأوروبى يطأ بقدمه جميع أنحاء المسكونة، ويستولى على منابع الثروة فيها، بقوة العقل أو بالعنف.. وإذا صادف أمة متوحشة أبادها أو أجلاها عن ديارها.. وإذا صادف أمة كأمتنا، لها نوع من المدنية ودين وشرائع وأخلاق، عاملها بالمعروف.. لكن لا يمضى زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة.. ولا سبيل أمامنا للنجاة إلا أن نستعد لهذا القتال، مستجمعين من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها.

إن أمام مصر عقبة رهيبة هى أوروبا.. لقد حاربناها طويلاً من أجل استعادة مكاننا فى العالم...].

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من أبناء المدرسة السياسية التى تكومت من حول الإمام محمد عبده. . . يؤمن أبناؤها «بالإصلاح» طريقا للتقدم والتطور، ويرفضون «الثورة» ويعلقون الآمال على «الصفوة المستنيرة» و«النخبة المختارة» وليس على «العامة والجماهير». . وهذه «الصفوة» عندهم معيارها «الاستنارة الفكرية»، وليس الوضع الطبقى والثروة المالية والجاه الموروث.

وفى ظل الاحتلال البريطانى لمصر، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لا بد لمن يريد «الإصلاح» أن يتعامل معها ويدخل وإياها فى علاقات. . . وبسبب من منهج «الإصلاح التدريجى» الذى اتبعته هذه المدرسة فإنها لم تطرح قضية «الجلاء الفورى» للمحتل عن البلاد كشعار لها، لأنها كانت تؤمن بأن «الصفوة» التى لا بد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعدْ، ومن ثم كانت ترى أن «الجلاء الفورى» ـ حتى مع افتراض تحققه ـ سينقل السلطة الكاملة إلى الخديو ـ وهم يناوئون حكمه وأسرته إلى حد ما ـ أو إلى الدولة العثمانية، وهم ضد عودة سلطانها إلى مصر، لأنهم يؤمنون بالوطنية المصرية والذاتية المصرية المستقلة، وبعضهم يؤمن «بالقومية» المصرية بالمعنى العصرى والحديث.

ومن هنا مثّلت هذه المدرسة، فى السياسة، تياراً معتدلا . .

تهادن مع الاحتلال وتعامل معه، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والإصلاحات العصرية التي أراد المحتل، بتطبيقها، تحقيق مصالحه، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والإصلاحات في تكوين هذه «الصفوة» المستنيرة، ومناوأة التيار الفكري المتخلف والمتمسك بفكرية العصور «المملوكية ـ العثمانية» في فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة.

أي أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطني الداعي إلى «الجلاء الفوري» وهو تيار مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨م) والحزب الوطني.. وهو الذي كان أكثر شعبية وأقرب إلى «الثورية»، وأصدق في التعبير عن الموقف الوطني السليم. كما تميزت كذلك عن فئة المستسلمين للاحتلال، واليائسين من حصول مصر على الاستقلال، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباط التبعية والعمالة.

كان قاسم أمين واحداً من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة.. وإن لم تكن السياسة، بمعناها الشائع، شغله الأول والأهم.

وهو يحدد بنفسه أنه من فئة «المعتدلين» عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعي نيابي حقيقي، فيقول: لقد «باتت كثرة من المصريين المعتدلين، وأنا واحد منهم» تطلب قيام هذا المجلس، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة، فيقول: «غير أننا نود، بالطبع، نظاماً فيه الغلبة للمعرفة الواعية، لا للكم العددي!»[1].

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٤٥، ٣٤٦.

ولقد فرض هذا «الاعتدال» على هذه المدرسة أن ترفض أسلوب «الإثارة الثورية» الذى استخدمه مصطفى كامل فى بعث الروح الوطنية وإذكائها فى نفوس المصريين. فكان محمد عبده يصف خطب مصطفى كامل بأنها «نوبات صرع!».. كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن «الوطنية»، ودخوله فى كل شىء فى البلاد، على حين أن ذلك ـ من وجهة نظره ـ ليس ضروريًا لإثبات حبنا للوطن الأم، كما لم يكن ضروريًا لإثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد.. «فمنذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الإحساس الوطنى؟! عاش آباؤنا، وتعلموا، واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وخدموا أمتهم، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة. أما الآن فأيا قرأت وفى أى مكان وجدت لا أسمع إلا: حب الوطن، والغيرة الوطنية، والتفانى فى خدمة الوطن، والجريدة الوطنية، والمدرسة الوطنية وحزب الوطن، والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتربح لخدمة الوطن. صار حب الوطن دينًا جديدًا، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقًا حامضًا يجعل تناوله سهلاً مقبولا!!»[1].

ونحن نود أن ننبه إلى أن «خطأ» هذا الموقف «المعتدل» فى السياسة وفى الوطنية، يجب ألا يختلط «بالخيانة» و«العمالة»

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ١٧٣، ١٧٤.

للاستعمار، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحى هذه المدرسة الفكرية التى انتمى إليها قاسم أمين . . فهناك من الأدلة على «زيف» هذا الاتهام الكثير والكثير [1].

وإذا كانت هذه الصفحات ليست بالمكان المناسب لتفصيل الموقف السياسى والوطنى لهذه المدرسة، فإننا نهتم بأن نشير هنا إلى موقف قاسم أمين من الصراع الذى شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار.

لقد أدرك قاسم أمين، على نحو جيد، أن بين مصر وبين أوروبا صراعًا حضاريًا، ومن ثم وطنيًا، يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ، وحدد على نحو ناضج وحاسم، أن العقبة أمام تطور مصر، وبلوغها المكان الطبيعى الذى تأهلت له، هى أوروبا!!

«. . . إن أمام مصر عقبة رهيبة هى: أوروبا!»

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد في مصر منذ عهد سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م) حتى أصبح له فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) سيطرة حقيقية علينا، إذ باتت كل أفعالنا ولفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين، وأضحى وزراؤنا يميلون مرة إلى اليمين، ومرة إلى اليسار، خاضعين دائمًا

---

(١) انظر الفصل الذى كتبناه فى التقديم «للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» تحت عنوان «الإصلاح . . لا الثورة . . فالإصلاح». جـ١ ص ٣٣ ـ ١٠٠، طبعة بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ١٩٧٢.

لأوروبا . . إن أوروبا استخدمت دائمًا هذه السيطرة ضد مصر . . ولقد آن الأوان لتدرك أوروبا أن المصريين قد عانوا ولا يزالون يعانون بسببها ، وأن العدالة تفرض عليها واجب إصلاح ما أفسدته . . وفي انتظار الوقت الذي تعترف فيه بخطأ سياستها الماضية . . أسجل : أن أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبرى التي كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا في العالم![1]

هذا عن أوروبا ، بشكل إجمالي وعام ، أما إنجلترا التي أصبحت المحتل الذي انفرد باستعمار مصر ، فإن قاسم أمين يقف منها موقف «الناصح» لها بأن تأخذ بيد مصر ، وفاء «بالواجب» عليها ، ويعلق عليها «الآمال» في أن تساعد في تطور مصر إلى الأمام ، ويثني على ما تحقق في ظل احتلالها من «تقدم» في عدد من الميادين . . ولكنه يستنفر قومه إلى النهوض ، محذرًا إياهم من ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاستغلال والاستنزاف والنهب الاستعماري ، فهو «يأمل» في الإنجليز ، ولكنه يطلب «المشاركة» ، ويحدد أن قانون «البقاء للأقوى والأصلح» هو الحكم في هذا الصراع بين المصريين وبين الاستعمار ! !

فهو يطلب «أن تحمل إنجلترا مسئولية مستقبل مصر ، ما دامت تمسك مصيرها بين يديها» ويأمل ألا يسمح «إخلاص إنجلترا» بعودة «الفساد الدكتاتوري» مرة أخرى إلى البلاد ، ويرى أن مصر «قد بدأت تنتظم بالفعل في طريق الحضارة»[2] ، وأنه قد أصبحت

---

(١) المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤١ .
(٢) المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٣٤ ، ٣٤٤ .

لديها «حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية»[١] وأن مصر قد دخلت «عصر النظام والحرية»[٢] . ويحدد أن كل هذه الإنجازات إنما هى من فعل الإنجليز ، وأن الكثير منها قد تم فى وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للقديم ، «فكل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل ، لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبى ، وعلى رغم أهلها»[٣] .

ولكنه لا ينسى أن «يتحفظ» بعض التحفظ على ذلك الإسراف الذى يتجلى فى تقييمه لدور الاستعمار فى مصر ، وهو الإسراف الذى يجافى الحقيقة ، أو يعرض جانبًا واحدًا من جوانبها ، فيتساءل قائلا : لكن ، «هل يعنى هذا أن لدينا حكومة كاملة ، وأن كل شىء على أحسن ما يرام؟؟» ـ (وننبه إلى أن الإجابة بنعم كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) ـ ثم يجيب : « . . . الحق ، أن لا . . فلا يزال أمامنا عمل كبير ، ولا يزال علينا أن نعيد تنظيم إدارة الأقاليم التى بقيت مأوى لعقلية النظام القديم . . إننى أعلن حكومتى أيضًا ، بالحاجة إلى تمثيل وطنى حقيقى ، وإن يكن فى صورة مبسطة !»[٤] .

وبالطبع ، فنحن نؤمن بأن هذا الموقف «الوطنى المعتدل» لم يكن هو أصح المواقف ولا أجداها فى ذلك التاريخ . ولكننا لا

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

نود أن نظلم قاسم أمين إذا تركنا القارئ يتصور أن آماله فى التقدم بمصر قد كانت معقودة فقط على إصلاحات الإنجليز فى إدارتها ومرافقها، فلقد كانت آمال الرجل معلقة أيضًا، بل وبالدرجة الأولى، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب وانتزاع مواقعهم فى بلادهم بجدارة، والاستبسال فى سبيل الفوز فى هذا الصراع، الذى حذرهم مغبة الإخفاق فيه.. إنه يحدد جانبى الصورة كما رآها يومئذ، إيجابياتها التى دخلت إلى الواقع المصرى، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها.. فيقول:

«إننى لا أجد فى ماضيها - «مصر» - عصراً انتشرت فيه المعارف، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية، وانبث الأمن والنظام فى أنحاء البلاد، وتهيأت الأسباب للتقدم، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن.

«ولكنها، من جهة أخرى، لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن، فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء، حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المسكونة.. وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه، من زراعة وصناعة وتجارة.. وإن أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين، فإنه إنما يسعى إلى السعادة.. يطلبها أنى وجدها، وبأى طريقة يرى النجاح فيها، وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله، فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليهما.. وهو لا يطلب الفخار والمجد.. بل المنفعة.. وتحصيل

الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لايعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها . . فإن صادفوا أمة متوحشة أبادوا أهلها وأهلكوهم، أو أجلوهم عن أرضهم، كما حصل فى أمريكا وأستراليا، وكما هو حاصل الآن فى إفريقيا . . وإن صادفوا أمة كأمتنا، دخل فيها نوع من المدنية من قبل، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف، ولكن لا يمضى زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة . . وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها. هذا ما سماه «داروين»: قانون التزاحم فى الحياة . . فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لا مندوحة عنها، وهى أن تستعد الأمة لهذا القتال! وتأخذ له أهبتها، وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت . . . »[1].

فهو موقف «وطنى معتدل»، إذ يبالغ فى تقييم إنجازات الاستعمار الإنجليزى فى مصر، أو على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسمات، لا كل القسمات . . ولكنه يستفز أمته «للقتال» دون ثرواتها وكنوزها التى هى الهدف الأول والأساسى فى هذا الصراع الضارى والتاريخى بينها وبين الأوروبيين.

وهو لذلك، أيضا، يدعو إلى جعل «الإحساس الوطنى» أحد

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٦٩، ٧٠.

أسس ثلاثة لا بد أن يقوم عليها نظام «التربية» عندنا . . ومعه : الأساس الديني . . والوازع النفسي وتنمية الضمير[1] .

* * *

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، في «الموقف الوطني» لقاسم أمين ، تتعلق «بتطور» موقفه هذا في سنوات حياته الأخيرة . . ذلك أنه ، مع آخرين من أبناء تلك المدرسة المعتدلة ، قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولآمالهم وأهدافهم الاستفادة من أسلوبه العصري وبرامجه في الإصلاح . . كما شعروا بأن عدداً من إصلاحاته التي كانوا قد استبشروا بها خيرا قد عادت وتعود نتائجها الإيجابية للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية ، فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتلال ونمو ثروات التجار والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد التهمت أغلب عوائد إصلاحات الري والزراعة والرواج التجاري في البلاد . . . ولم يبق لأبناء الوطن إلا الفتات . . وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد ، أصبح هو العائد الأساسي والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم . . ولم تحدث إضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات أبنائها العقلية . . بل لقد عاد الإمام محمد عبده ، في مرضه الأخير ، فأثنى على نظام التعليم الذي أقامه محمد علي ، وفضله على إصلاحات الإنجليز التعليمية بعد أن كان قد علق عليها الآمال[2] .

---

(١) المصدر السابق ، جـ١ ص ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٢) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» . دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة ، جـ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، وجـ٣ ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

وهذا التطور الذى نقول إنه قد حدث فى «الموقف الوطنى» لقاسم أمين، يتجلى لنا إذا نحن تذكرنا حديثه الذى سبق وأوردناه، والذى انتقد فيه النمط الذى سلكه مصطفى كامل فى الدعوة إلى الوطنية، ثم قارناه بالعبارات الرائعة والعميقة التى سطرها فى مذكراته عندما شيَّعت مصر جثمان الزعيم العظيم مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨.. وهى العبارات التى يقول فيها قاسم أمين:

«١١ فبراير سنة ١٩٠٨م.. يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق.. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم «دنشواى»، لقد اتحد يومها شعور الناس.. ولكنه بقى مكتومًا فى النفوس.. أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك ساطعًا فى قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث، الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يتبسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل!»[1].

فنحن هنا نشعر أن قاسم أمين يبايع مصطفى كامل ومذهبه فى الوطنية ومسلكه فى البعث الوطنى، وهو هنا يحيى هذا

---

(١) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين»، جـ١ ص ١٨٣.

«الانفجار» الوطنى الهائل الذى جاء يبعث الدفء والحرارة فى «القلوب الجامدة الباردة» التى نأت عن مواقع الوطنية الثائرة ولهيب حرارة الحركة الوطنية الجديدة.

وكما كانت خيبة الآمال فى إصلاحات المستعمر سببًا فى ذلك التطور.. فلقد كان من أسبابه ـ كما نعتقد ـ تعاظم التيار الوطنى الذى قاده مصطفى كامل والحزب الوطنى.. وأيضًا إخلاص هذا النفر من أبناء مدرسة الاعتدال الوطنى لقضية بلادهم.. ذلك الإخلاص الذى دفعهم لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما لم يحقق لهم «الاعتدال» ما أملوه لخير الوطن وتحرره من الاستعمار.

أعماله الفكرية

الأعمال الكاملة لقاسم أمين : التي جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتي قدمناها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦م ، هي حلقة في تلك السلسلة التي بدأنا إخراجها منذ سنة ١٩٦٨م ، سلسلة «الأعمال الكاملة» لأعلام عصر اليقظة العربية والبعث الحضاري الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الإسلامي المستنير .

وفي هذه السلسلة ، صدرت :

١ - **الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني** : ونحن نستكمل الآن طبعتها الثانية ، كي تتضمن تلك النصوص التي اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفي مقدمتها تلك النصوص التي كانت منسوبة ، خطأ ، للإمام محمد عبده . وهي نصوص ستجعل طبعتها الجديدة تأتي في أربع مجلدات ، بعد أن كانت طبعتها الأولى في مجلد واحد .

٢ - **الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي** : ولقد صدرت طبعتها الثانية ، حاوية نصوصاً ووثائق لم تنشر للكواكبي من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والإضافات التي أدخلها على كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» قبل وفاته ، ونعمل الآن

لإخراج طبعتها الثالثة حاوية مقالاته التى كانت مفقودة، والتى نشرت بالصحف التى أصدرها بشبابه فى حلب.

٣ـ **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده:** ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير.. ونفذت طبعتها الأولى والثانية. ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتنقيحات.

٤ ـ **الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى:** وصدورها يقترب الآن من الاكتمال، فلم يبق منها سوى الجزء الأخير، وفيه الفهارس وبعض المتفرقات.

٥ ـ **الأعمال الكاملة لعلى مبارك:** ولقد صدرت المجلدات الثلاث الأولى.

فأعمال قاسم أمين، إذًا، هى حلقة فى هذه السلسلة، التى نرجو لها النمو كى تضع بين يدى مفكرينا وباحثينا وقرائنا الثمرات العقلية الفذة والبارزة التى صنعت عصر نهضتنا الحديث، والتى لا تزال فاعلة، ومؤثرة فى حركتنا الفكرية حتى الآن.. وهو إنجاز نعلق على استمراره واكتماله أهمية كبرى، لشدة حاجة حركتنا الفكرية إليه، وحتى لا نكون بدعًا بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار، وتحقيقها والتقديم لها، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية، رغم غناها الفكرى وشدة حاجتنا إلى وصل خيوط تطورنا الثقافى وتأصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه.

❋ ❋ ❋

وإذا كان لا بد من كلمات عن النصوص التى تكون «الأعمال الكاملة لقاسم أمين» فإننا نقول: إن مفردات نصوص هذه الأعمال هى:

١ ـ **كلمات**: وهى الخواطر واللمحات التى كتبها قاسم أمين فى «مفكرته الخاصة»، والتى كانت بمثابة «مذكرات نفسية خاصة».. كتبها لنفسه، وأودعها خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره، صاغها فى أسلوب جاء غاية فى الرشاقة والجمال.

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه الـ «كلمات» لصديقه أحمد لطفى السيد باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣م) فلما توفى قاسم سعى لطفى السيد إلى الأسرة، بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧م) حتى حصل عليها، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف بركات (١٨٦١ ـ ١٩٢٤م) ثم نشرتها جريدة لطفى السيد «الجريدة» سنة ١٩٠٨م.

* * *

٢ ـ **أسباب ونتائج**: وهى خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين، دون توقيع، فى صحيفة الشيخ على يوسف «المؤيد» ما بين سنة ١٨٩٥م وسنة ١٨٩٨م.. مقدمة وأربع عشرة مقالة، عالج فيها عدداً من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى تهم دعاة الإصلاح.

* * *

٣ ـ **أخلاق ومواعظ**: وهى مثل «أسباب ونتائج»، مقالات خمسة

كتبها فى «المؤيد» فى نفس الفترة الزمنية (١٨٩٥ ـ ١٨٩٨م) دون توقيع، وقصرها على علاج مشاكل «الموظف والوظيفة والتوظف» فى عصر كان التسابق فيه على العمل «الميرى» ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج، وتنمى فى هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق.

* * *

٤ ـ المصريون.. رد على داركور: وهو الكتاب الذى أصدره بالفرنسية قاسم أمين سنة ١٨٩٤م، ردًا على الكاتب الفرنسى «دوق داركور» الذى أصدر كتابًا عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣م، امتلأ بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الإسلام والمسلمين.

ولقد قال قاسم أمين عن ملابسات كتابته لهذا الرد: «إننى حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائى، قبل أن يرد على خاطرى فكرة الرد عليه. لقد وجدته بالغ القسوة، وأحزننى أنه حاول انتزاع جميع آمالى، غير أننى أخذت أسترد هدوئى شيئًا فشيئًا، وبعدها شرعت أطيل التفكير فى كل ما كتبه عنا، وتأملت جميع المشاكل التى وضعها وحلها، وخلعت عنى صفتى المزدوجة، كمصرى مسلم، لأحلل الموقف فى حياد تام ودون انفعال أو تحيز، ولم أسترشد بغير الرغبة فى معرفة الحقيقة، حتى أستطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله أجنبى يعرف عن مصر كل ما أعرف، ويقيمها بطريقة محايدة».

ولقد ظل هذا الكتاب الذى يمثل قسمة متميزة فى فكر قاسم

أمين ومرحلة فى تطوره الفكرى حيال بعض القضايا الهامة، ظل بعيداً عن اللغة العربية، حبيس أصله الفرنسى، حتى تقديمنا له فى أعماله الكاملة.

ولقد كان ذلك سببًا من أسباب مجىء أغلب الدراسات التى كُتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة، وبعيدة عن إدراك تطوره الفكرى.. وهما الأمران اللذان تحققهما، ضمن ما تحقق، الدراسة التى قدمناها عنه هنا.

أما إنجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ محمد البخارى.. ولنا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر فى نصه من أسماء الأعلام.

* * *

٥ - تحرير المرأة: وهو أكثر كتب قاسم أمين شهرة وذيوعًا.. بل أشهر كتاب عربى صدر فى عصره.. صدر سنة ١٨٩٩م، فأثار أول معركة فكرية كبرى، سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا فى بداية القرن الماضى.

ولقد سبق لنا أن عرضنا، ونحن نقدم للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، إلى أن للأستاذ الإمام دوراً فى تأليف هذا الكتاب؛ وقدمنا فى ذلك المقام أدلتنا على أن رأى الشرع الإسلامى فى قضايا: الحجاب، والزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، الذى تضمنه «تحرير المرأة» هو للأستاذ الإمام.

* * *

٦ ـ المرأة الجديدة: وهو الكتاب الذى أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠م، وركز فيه جهده للرد على الاعتراضات التى قدمت، فى الكتب والرسائل والصحف والمجلات والمنتديات، ضد كتابه «تحرير المرأة».. كما ضمنه تطويرًا أكثر جرأة فى عدد من القضايا التى تناولها فى «تحرير المرأة» فى تواضع أو على استحياء.

* * *

٧ ـ إنشاء الجامعة: وهى كلمة لقاسم أمين خطبها فى اجتماع من الاجتماعات التى عقدت سنة ١٩٠٨م للتحضير لإنشاء الجامعة المصرية.. عرض فيها لأهمية التعليم الجامعى ودوره فى خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين.

٨ ـ الإمام محمد عبده: «أخلاقه وفضائله وإمامته».. وهو خطاب قاسم أمين الذى ألقاه فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥م باجتماع تأبين الأستاذ الإمام، فى ذكرى مرور أربعين يومًا على وفاته، وفيه عرض لمكانة الإمام، ودوره فى الفكر العربى الإسلامى، والمدرسة الفكرية التى تكونت من حوله.

تلك هى مفردات الأعمال الكاملة لقاسم أمين.. وهى الأعمال التى جمعناها، وحققناها، وقدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته، وفكره، ومكانه من حركتنا الفكرية فى عصر نهضتنا الحديث.. ولقد صدرت طبعتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ببيروت سنة ١٩٧٦م.. وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق.

كلمات

[دونها قاسم أمين في مفكرته الخاصة..
فجاءت: آية من آيات الخواطر الصادقة مع النفس..

ونموذجًا راقيًا للمذكرات التي يوحيها القلب وتسكبها العاطفة..

وصورة من صور الشاعرية التي سطرها قلمه الرشيق...].

* الحرية[١]

الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.

* * *

* لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً.

* إن الذى مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك.

* رُبَّ كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها.

* * *

* إذا استشارك عدوك فاخلص له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك.

* * *

* فى مصر: كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلا، فإذا درس شيئا من العلم صار عالما مفضالا، فإذا امتاز ببعض الحذق أو إظهاره عُدَّ من النوابغ.

(١) العناوين الفرعية التى وضعت لفقرات هذه «الكلمات» من إنشائنا نحن وليست من وضع قاسم أمين.

❊الايمان

ليس الإيمان مسألة عقلية أو علمية، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب، وإنما الإيمان مسألة شعور صرف، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجًا إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه.

❊ ❊ ❊

❊ بين العلم والدين

تعصب أهل الدين، وغرور أهل العلم، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم، وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقى، لا فى الحال ولا فى الاستقبال، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء، فمهما كثرت معارف الإنسان لا تملأ كل فكره، بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها. الآن وغدا يشتغل عقل الإنسان بالعلم، أى بمعرفة الحوادث الثابتة، ولا يمنعه ذلك من التفكر فى المجهول الذى يحيط بها من كل طرف، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين.

❊ العشق

لا شىء يشبه العشق فى عنفوان نشأته، إذا هجم هذا المستبد

القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه، فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته، فلا يقبل منافسًا أو منازعًا أو شريكًا أو ضيفًا بجانبه، بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها، ويفرق بينها وبين أميالها، ويذهب همومها وأحزانها، ولا يطمئن إلا إذا قطعت العلاقات مع غيره، وأصبحت كلها له، كأنها ولدت معه فى يوم واحد، وتفنى معه فى ساعة واحدة، لا تعرف ماضيها ولا تبالى بمستقبلها، فإذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها، وشكرته على أسرها، واغتبطت برقها، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحًا وسعادة لم تر مثلها.

العاشق عنده ما يكفيه: سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب، ومائدته فاخرة وإن لم يكن عليها غير الخبز والملح، تنتابه الحوادث ولا تترك به أثرًا، لأنه لا يعبأ بها، سارة أو ضارة، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة؛ لأنه يشعر بأن فى جسمه روحين وفى صدره قلبين.

إن كان فى الوجود إنسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق.

كل عشق شريف. فإن كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما، وإن كان بين وضيعين أكسبهما شرفًا وقتيًا، حتى إذا زال العشق سقطت قيمتهما، وانحطت مرتبتهما ورجعا إلى أصلهما.

❃ ❃ ❃

ليس ما يكتب على أبواب الأمكنة دائمًا صحيحًا، فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعقل من هذا الذى تراه سائرا فى الطريق متمتعًا بحريته، كذلك بيوت المومسات قد تقفل أبوابها على نساء، فيهن من هى أوفر حشمة وأدبًا وأكثر بعدًا عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتى تنحنى الرءوس أمامهن.

يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوبًا، وإذا كان غير محبوب فيجد فى ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر، من تنبه فى الأعصاب وسرعة فى دورة الدم وانفعالات شديدة فى النفس، وبالإجمال من زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة، كلاعب القمار يتمتع بإرضاء شهوته فى الربح أو فى الخسارة.

* * *

* من اختبارى لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم يظهر لى أن الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار لتوقد فى القلب حمية ألفاظ، متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثرًا بعدها.

*** الكاتب**

فى الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بإبداء فكره.

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هى، ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف، مراعاة لأى أمر كان.. هو العاشق الذى يعتقد

الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شيء يعادله، ولا يبالى بذم الناس، بل يجد فيه نوعًا من حماسة الغضب، منبهًا لأعصابه، منشطًا لقواه، مغريًا له على الاستمرار والثبات.

* * *

* كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل.

* * *

بعد سن الأربعين يبتدئ العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود ذاتى، وأن الثروات الجميلة التى نحبها ونقدمها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد فى الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها.

*** الخطيئة**

لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هى العفو عن الخطيئة: العفو عن أكبر خطيئة، العفو عن كل خطيئة.

هل المخطئ مسئول أو غير مسئول؟ وما هى درجة مسئوليته؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها، لكن حلها يكاد يكون محالاً، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الإنسانية بوجهيها: الأدبى، والمادى، والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الإرادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة، تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى

تقديره عقلنا، وكل تاريخ الإنسان في الماضي يدل على أنه لم يكن متولداً عن الحيوان المفترس مباشرة، فهو مشابه له في شره وأطماعه وشهواته، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم، خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً مؤقتاً.

فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه، هي الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الإنسان، هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التي يتخيل لي أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما. من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل. ذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً إلى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منها إلا بمقاساة أصعب المجهودات، حتى هذا النزر القليل لا سبيل إلى بلوغه إلا بتمرين طويل، يتخلله حتماً سقوط متكرر في الخطيئة، يكون منه الدرس المفيد لاتقائه في المستقبل.

وأخيراً، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح المذنب، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين إذا هي عولجت.

❋ ❋ ❋

❋ أمر لا تدري متى يغشاك، لا يمنعك مانع من أن تستعد له قبل أن يفاجئك.

نحن خلفاء العرب فى لغتهم، فكل ما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربيا بالطبع.

* * *

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصيا الذى يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن، أليس هذا برهانًا كافيًا على وجوب إصلاح اللغة العربية؟!

لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل، بهذه الطريقة، وهى طريقة جميع اللغات الإفرنجية، واللغة التركية أيضا، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال.. إلخ، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة، إذ تبقى مفرداتها كما هى.

فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ، فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة «ع ل م» يمكنه أن يقرأها علم[(١)] أو علم[(٢)] أو علم[(٣)] أو علم[(٤)] أوعلم[(٥)] أو علم[(٦)] ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة، فهى التى تعين على النطق الصحيح، لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون.

---

(١) بفتح العين وكسر اللام.
(٢) بضم العين وكسر اللام.
(٣) بكسر العين وسكون اللام.
(٤) بفتح العين واللام.
(٥) بفتح العين واللام المشددة.
(٦) بضم العين وكسر اللام المشددة.

كان المؤلفون فى القرون الوسطى هم: ابن سينا[1] وابن رشد[2] وابن مسكويه[3] وأضرابهم، كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم، ثم مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، واللغات الأوروبية أخذت تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم، حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة- صارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث.

رغما عن هذا قد أجمع قومنا على أن لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول، ويزعمون أنها سيدة اللغات، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا.

*** الابتكار**

الشعراء والكتّاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فيما يكتبون، وإنما فى عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة

---

(١) أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٦م) فيلسوف وطبيب شهير فى التراث الإسلامى، لقب بالشيخ الرئيس. وهو صاحب نزعة إشراقية فى الفلسفة.

(٢) أبو الوليد بن أحمد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م) فيلسوف قرطبة، الشارح الأكبر لآثار أرسطو، وأبرز فلاسفة التيار المشائى المسلمين.

(٣) أبو على الخازن «المتوفى سنة ١٠٣٠م» فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء. وله فى الأخلاق كتاب «تهذيب الأخلاق» وفى التاريخ «تجارب الأمم» وغيرهما كثير.

والسماع ، ومستودعات لأفكار غيرهم ، يتعاملون بهذه البضاعة التى ليست لهم ، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم . كل عملهم محصور فى تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن ، فإذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا! فلان ما أحلاه! علان ليس فى العالم مثله!

* طلب الحقيقة لذاتها

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة ، أى لكسب المال ، أما حب الحقيقة والاستغراق فى تحصيلها والشوق إلى اكتشاف المجهول ومغالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس ، وبالإجمال التعليم للتعلم فلا فائدة فيه ، والفائدة كل الفائدة فى هذا الذى لا فائدة فيه .

* صحافتنا

إذا قرأت الجرائد تجدها جميعا متحدة فى موضوعها متشابهة فى تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى ، وإذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ، ولا تجد فى الجريدة التى تقرأها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه .

* * *

* توجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة، أحسنها طريقة واحدة.. هي التي يجدها الكاتب المجيد.

*** حدود الإنسان**

عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذى لا نهاية له، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينًا وشمالاً، لا فرق فى ذلك بين الغبى الجاهل والذكى العالم.

* * *

المقلد فى إيمانه مقصر، يحمل عقيدته كما تحمل الوردة فى عروة الملابس، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول: إن كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيرى وإن كان موجوداً ربحت مع الرابحين، لذلك أومن به! هذا هو المحتال الذى لا يصان أحد ـ حتى الإله ـ من نصبه.

*** الأخلاق**

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان فى جميع أدوار حياته، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم، يكون آمنًا من السقوط يومًا فى الرذيلة، كما لا يوجد رجل، مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتى يومًا بأفضل الأعمال.

وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئًا يتم دفعة واحدة، وليس لها حد تقف عنده، إنما هى فى تحليل وتركيب، فى تكوين مستمر، يعتريها الانحلال زمنًا وتعود بعده إلى التماسك.

الإنسان أسير الشهوات ما دام حيًا، وإنما تختلف شهواته باختلاف سنه، فشهوة اللعب عند الطفل، وشهوة الحب عند الشاب، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين، وشهوة السلطة عند شيخ الستين، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا، متى وقع فيها أحدنا يجب عليه ألا يترك نفسه إلى تصرفها، ولا يستصعب الخلاص منها، ولا ييأس من نفسه، بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته، عليه أن يوجه إرادته إلى مصارعتها والتغلب عليها، عليه أن يحول فكره عن الأمس الذى كان فيه قبيحًا وينظر إلى غده الذى يكون فيه جميلاً.

لا يُطلب الكمال من المرء، وإنما يُطلب منه أن يكون فى كل يوم أحسن منه فى اليوم الذى مضى.

فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يومًا مهاجمًا ويومًا مدافعًا، كذلك الحال فى جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذى عرض نفسه إلى استهواء الشهوات وخدائع اللذات، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التى هى الفضيلة الحقيقية، خلافًا للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات، فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا

يقـاوم سلطانهـا إلا قليـلاً، وإذا سلم في نفسـه مـرة لا يستطيع الخلاص منها.

* * *

* بعد سن الأربعين كل زلة خطرة.

* عين الطماع حينما تبصر شيئًا تشتهيه، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل في نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقي. هذه النظرة رأيتها كثيراً عند المعتاد لعب القمار.

* * *

* يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كـأنهم صنعـوا بغـاية السـرعـة فلم ينالوا حظهـم من الإتقـان المعهود.

* * *

* لا تكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم إياه.

* أصحاب النفوس الكبار

زارني أشهر أديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية، وكـان في يدي كتاب فرنسوي، يشتمل على حكم ومواعظ موضوعة في جمل مستقلة لا ارتباط بينها، فقرأ فيه عبارة هذه ترجمتها: «إني أخـشى مـا أتمنى»، فـقـال: كـيـف يخـشى الإنسـان الشيء الذي

يتمناه، فأجبته: كل إنسان يخشى ما يكره، وليس كل إنسان يخشى ما يتمنى، وإنما هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة، وتكون سببًا لشقائهم، يرى الواحد منهم وردة جميلة فى البستان، فيتمنى أن يقطفها، ولكن يبعده عنها ما حولها من الشوك، يشتهى تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التى ربما تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها، فيلقيها على الأرض وهو يشتهيها، يلاقى المرأة التى كان يراها فى مخيلته مثال الجمال، فيود أن يلقى نفسه تحت أقدامها ويعطيها قلبه وحياته، ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها، يتمنى صديقًا ويخشى أن يجده خائنًا.. يتمنى.. كل شىء، ويخشى ألا يجد فيه كل ما تخيله. وهكذا يقضى حياته بين الأمل والخوف من تحققه، وتنتهى به الحال إلى أن يرى أن السلامة فى ترك الأمانى.

* * *

* كل مباحثة مفيدة، إذا كان الغرض منها إظهار الحقيقة، ولكنك لا تجد إلا شخصًا يريد أن يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغى إلى شىء مما تقوله؛ لأنه ليس مشتغلاً إلا بما يقوله.

* * *

*** الوحدة**

وجدت السآمة غالبًا فى الاجتماعات، وما شعرت بها فى الوحدة، أشتاق إلى الناس فإذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما

يزهدنى فيهم، فأفر منهم وأرجع ملتجئًا إلى نفسى، فأجد فيها الراحة والسكون.

***الصديق والعدو**

من الذى يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر؟ أهو الذى يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هى.. أم الذى يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره؟ لا شك أن الأول هو الصديق المكروه والثانى هو العدو المحبوب.

*** الرياء**

من الناس من إذا أراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لإعلانه، فإذا رأى شهودًا وضع يده فى جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء فى يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون، ولكيلا يبقى عندهم شك فى مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته: خُذ هذه الجنيهات العشرة، فإذا خرج هذا المسكين التفت إلى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر، ثم كلما اجتمع فى نهاره بواحد من معارفه، أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم. هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك.

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى إلى شكواه ويشاركه فى ألمه، ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوى عزيمته، فإذا قدم إليه

مساعدة مادية دسها فى وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح إحساسًا شريفًا، يحتال فى انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله، فإذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع فى ورطة ثم تخلص منهـا . ذلك هو المحسن الذى يعـرف أن للنفس حياء يجب احترامه كما أن فى الجسم ما ينبغى غض النظر عنه .

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره .

*** التجارب**

أقل مراتب العلم ما تعلمه الإنسان من الكتب والأساتذة، وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية فى الأشياء والناس .

فى الأمة الضعيفة المستعبدة حرف النفى (لا) قليل الاستعمال .

*** العقوبة فى التربية**

من مرورى فى المدارس والمكاتب أحفظ تذكارًا ثابتًا ـ لا يزول أبدًا ـ وهو الخوف من الضرب فى الكتّاب ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم، وفى المدارس بالنيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام، كنت أذهب إلى محل التعليم مصحوبًا باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعـاش فى الجسم، وبعكس ذلك أرى الآن الأطفال يذهبون إلى المدارس راضين مسرورين ـ نتيجة منع الضرب فيها ودخول الألعاب الرياضية .

* الحرية

الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر.

فى البلاد الحرة قد يجاهر الإنسان بأن لا وطن له، ويكفر بالله ورسله، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم، ويهزأ بالمبادئ التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية. يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ولا يفكر أحد، ولو كان من ألد خصومه فى الرأى، أن ينقص شيئًا من احترامه لشخصه متى كان قوله صادرًا عن نية حسنة واعتقاد صحيح. كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟

* العبقرية

يظهر لى أن الارتقاء فى الإنسان تابع على الخصوص لجهازه العصبى، فأكثر الناس استعدادًا للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغًا عظيمًا، وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث، فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون، أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم، يتنافسون فيما بينهم فى مصادمة كل صعوبة، من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحى إليه أسرارها، فيصير شاعرًا بليغًا أو وليًا طاهرًا أو فيلسوفًا حكيمًا أو نبيًا كريمًا.

* الفنون الجميلة

لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة: التمثيل والتصوير والموسيقى، هذه الفنون ترمى جميعها، على اختلاف موضوعها، إلى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال، فإهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور.

* * *

دخلنا قصر اللوفر، وكنا أربعة من المصريين، لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم، فبعد أن تجولنا فى غرفتين، جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلاً: أنا اكتفيت بما رأيت، وها أنا منتظركم هنا. وقال الثانى: أتبعكما لأنى أحب المشى، وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى، وسار معنا شاخصًا أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاح: (هذا ألطف ما فى هذه الديار)! وصلنا إلى تمثال آلهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع، فسألت دليلنا: ماذا تساوى هذه الصورة إذا عرضت للبيع؟ فقال: إنها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم، تساوى كل ما يملكه الإنسان، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنًا لها إذ لا حد لقيمتها.

* الأتراك

مهما كان الرأى فى حكم الأتراك لمصر، فلا ريب عندى أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيراً، وجدت فيهم إنسانية راقية فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن فى الملبس والمأكل وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية.

وإذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة، فهى لا تزال إلى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية، حتى إنك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابتعادهم عن الثانية. واليوم وجد المصريون والأتراك أمامهم إنسانية أرقى، اختلطت بهم اختلاطًا كبيراً، فأخذوا يقلدون الأوروبيين فى جميع شئون حياتهم، ولا أرى أن هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى إنقاذ أمتنا فى الحال التى هى فيها الآن.

* الرأى العام

إذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحكومة بالخيانة، ساخطًا عليه، شديد الرغبة فى سقوطه، فاعلم أنه غالبًا رجل طاهر وعامل نافع.

وإذا رأيت الرأى العام معاديًا لكاتب، وأعد له خصومًا يتسابقون إلى نقض أفكاره وهدم مذهبه، وعلى الخصوص إذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم إلى السب والقذف، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق.

ما هو الرأى العام؟

أليس هو فى كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله، عدو التغيير، خادم الباطل، ومعين الظالم!

لو انتظر المصلحون دائمًا، رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء.

*** اللذة ومضة لا تتكرر**

صنف الطعام الذى أعجبك، أو قطعة الغناء التى أطربتك، أو ليلة الأنس التى راقتك مع محبوبتك، أو غروب الشمس البديع الذى خفق لأجله قلبك، إذا قصدت تكراره فإنك لا تستطيع أن تجد السرور الذى شعرت به لأول مرة، فلا تحاول أن تنال ذلك فى إعادته.

***الجبان المدعى**

قبيل الغروب وقف بنا «وابور النيل» الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع، وكان يشتغل فيه رجلان، لمح أحدهما ثعبانًا غليظًا قصيرًا، ففر وهو يصيح (ثعبان، ثعبان، ثعبان).

أما الآخر فتقدم إليه حاملاً فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه، ثم تركه فى مكانه، وأخذ سلاحه وعاد إلى عمله، ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة، وحينئذ تحرك زميله ومشى محترسًا على أطراف قدميه شاخصًا إلى الحيوان، واقترب منه بطيئًا بطيئًا، ولما وصل إليه لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده

وقلّبه مرة ثم مرة أخرى حتى إذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب!) وطعنه بالفأس طعنة قوية.

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به إلى الجسر، وكان فى هذه الساعة عامرًا بالمارة، فاستوقف الأطفال والنساء والرجال، وصار يقص الواقعة عليهم قائلاً: (هجم علينا فقتلناه) وفى آخر الرواية يلقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال، فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن، ومازال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعًا، وهو فى مقدمتهم حاملاً فريسته. أليس هو الحال دائمًا فى جميع مظاهر الحياة الدنيا: ترفع من رجال العمل عن حب الظهور، وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها!

* سحر المطبعة

يفعل الكلام المطبوع فى نفس الجاهل فعل السحر، فيستولى على عقله، فإذا روى عن كتاب قال لنفى كل شبهة: هذا مدون فى الكتب، وإذا نقل عن جريدة قال: هذا مذكور فى الجرنال.

فإذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وأن الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنال، أجابك: نعم: ولكن لا بد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر، لأن صناعته تقضى عليه بذلك.

* * *

* توجد كلمات ألصقها الكتَّاب بعضها ببعض من قرون طويلة، فحيث تكون إحداها تكون الأخرى، حتى ملت طول العشرة: كالعالم العلامة، والحسيب النسيب، والصديق الحميم، والسيدة المصونة. فإما طلاق يرد إليها حرية الاقتران بكلمات أخرى، وإما على الأقل حيلولة مؤقتة تستريح فى أثنائها من هذه الشركة القهرية.

* * *

*** الذوق**

من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم.

الذوق السليم هو هذا الإحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية، هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب ما لا يناسبه.

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا، هم على يقين من أن الذوق لم يخرج من مصر.

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية، والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه، يتفرج مجانًا على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين.

*** صداقة**

كان خمسة من أرباب المعاشات، خمسة شيوخ، مروا على

فروع الإدارة المصرية القديمة وتقلبوا فى مناصبها العالية من مديرية إلى مجلس الأحكام إلى ديوان الأوقاف إلى السكك الحديدية، اختاروا بيت أحدهم، أكبرهم رتبة، وصاروا يجتمعون فيه من الصبح إلى الظهر، ومن العصر إلى بعد الغروب، جالسين على الكراسى فى بستان عتيق مهمل، ولكنه واسع الأرجاء، تطاول أشجاره السماء، هواؤه معطر بروائح الزهور، لا يصل إليه شىء من ضوضاء الطريق، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور، ماذا كانوا يقولون ويفعلون؟ كانوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهذا الاجتماع، مكتفين به لسد فراغ حياتهم، وفى بعض الأحيان يلعبون النرد، فيتقدم منهم اثنان إلى ميدان المبارزة، ويلتف حولهما الباقون للفرجة، وإذ ذاك ترتفع أصواتهم - شيش يك - بنج جهار - خانة - اضرب - ويتناقشون بحدة، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يغضب لأنه مغلوب، فإذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحادثون ويذكرون ماضى حياتهم وسيرتهم فى أعمالهم بالتفصيل والتدقيق فى تواريخ السنين والشهور، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمينة حوادث مهمة ووقائع غريبة، رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين، يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الإدارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم، وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة من حدة الشهوات والتأثر، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحيانًا على وجوههم. وهناك

موضوع كان يتردد فى غالب الأحيان فى حديثهم، هو تقدير سن كل واحد منهم، متى طرقوه جرهم إلى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط فى الأرقام والوقائع وعوج فى الرأى وإباء للحق ومغالطات ظاهرة. كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم، يسمع دويه من مسافة بعيدة، ومهما بلغ جهدهم فى الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة، وظل كل منهم حافظًا مركزه متمسكًا بزعمه.
وفى يوم حضروا كعادتهم إلى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل، فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى إلى بيت أحدهم، واستمروا هم الأربعة على حالهم المعهودة، ولكن نفوسهم كانت تشعر دائمًا ببعض الحزن، كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو إليهم انفرادها، وتدعوهم إلى الانضمام إليها، فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر، وماتوا واحدًا بعد الآخر فى مدة قصيرة، وبقى خامسهم إلى الآن منفردًا كئيبًا لا يتكلم ولا يخرج من بيته، لا يدرى ماذا يصنع بحياته، ويرقب الموت الذى يخلصه منها.

#ليس نقدًا

أتعرف حسين بك؟

ـ لا

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه، ولم يره أحد قط غير مبتسم. إذا قال لك: نهارك سعيد، ضحك، وإذا أخبرته أن الهواء طيب، ضحك، وإذا سمع أن زيدًا مات

ضحك، زينة المجالس، وأنيس النوادى، يرى نفسه مكلفًا بوظيفة السرور فيها ومنوطًا بنشر التفريح حوله، يستخدم كل شيء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد فى أهم الحوادث موضوعًا للتنكيت، وفى أحسن الرجال محلاً للسخرية. لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال لا بد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس.

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلى الصحيح فرق عظيم، الانتقاد الهزلى الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر إلى موضع العيوب فى الإنسان وجهات الضعف فى الحوادث فيبتسم بسكون ولطف، وإذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غايته بل بعده وسيلة للفت النظر إلى شيء يحزنه وأمر يبكيه.

غرضه الإصلاح، فيجاهد فيه بالطريقة التى يراها مناسبة لاستعداده الطبيعى. لا يحقر إحساسًا شريفًا ولا يصغر عملاً كبيرًا، وإنما يحارب الرذائل والدنايا، ويلحق بها أخف ما يمكن من الضرر، فى هذا الأسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصاصين فى أوروبا، وعُدوا من أعظم رجال الأدب والفلسفة.

*** تحايل**

أخبرنى موظف فى الأزهر، لا يخفى عليه شيء من أسرار الطلبة، أنه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن يسير

وراء شهوته ذهب إلى أحد البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك، فإذا قضى شهوته طلقها وخرج معتقداً أنه بريء من كل ذنب.

* * *

* سئل ح. بك ـ ما رأيك فى كتاب «تحرير المرأة»؟

فأجاب: ردىء! هل قرأته؟ ـ لا ـ أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته؟ ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيى!

* * *

* أخلاق جديدة عند الشبان: علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتى يرشحون أنفسهم لخطبتهن، وعلى الخصوص على حالتهن المالية وحال بيوتهن، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن وقيمة ما تساويه ريعها وسن والدها والأمراض التى يكون مصاباً بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته.. إلخ. معلومات لا يفكر فى جمعها أشد المرابين احتياطاً إذا أقرض مبلغاً جسيماً بدون تأمين.

***الحجاب الفتنة**

رأيت يوماً فى شارع الدواوين امرأة تمشى وأمامها خادم، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة، طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها

بين العشرين والثلاثين، فى وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقًا تامًا، الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل، والقسم الأعلى غير مستور، وإنما الملاءة مشبوكة فى رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين، على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه، تحجب فاها وذقنها حجابًا لطيفًا شفافًا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة. كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجًا كما تفعل الراقصة على المسرح، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك، وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام، وبالاجمال كان مجموعها تحريضًا مهيجًا لحواسهم!

❋ ❋ ❋

كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها: «من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم!». كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها، كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزًا محبوبًا.

❋ ❋ ❋

❋ لا فرق بين من يفشى سرًا أؤتمن عليه وبين من يختلس مالاً أودع عنده.

❋ ❋ ❋

* الـزواج

المصريون الذين يفهمون أن للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع المؤقت هم تابعون لقانون الحب والأمانة والإخلاص لنسائهم وأولادهم، قانون أعلى من مبادئ حب الذات التي وضعها بعض فقهائهم.

ما دام الطلاق متروكًا إلى رأى الزوج يستحيل أن يثبت فى نفوس الرجال والنساء أن أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة إلى آخر الحياة.

* * *

الزواج عندنا حيازة رجل لامرأة يومًا أو شهرًا أو سنة أوعدة سنين، حيازة تنتهى بمجرد إرادة الرجل، ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته إلى الباب ويقول لها: اخرجى.

* * *

السآمة علامة النفس الشريفة.

* التربية

يولد الإنسان شريرًا خبيثًا قاسيًا محتالاً كذوبًا. الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يتألم إلا من نفسه، وفيه أثرة هائلة لا حد لها. هذه العيوب تنمو مع

الطفل، وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال، فيتعلم كيف يخفيها، يحسن ظاهره ويستر باطنه. أعظم ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها.

* * *

*** الوطنية**

من ذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الإحساس الوطنى؟ عاش آباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وخدموا أمتهم وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة، أما الآن فأيما قرأت، وفى أى مكان، وجدت لا أسمع إلا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفانى فى خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن. صار حب الوطن دينًا جديدًا، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقًا حامضًا يجعل تناوله سهلاً مقبولاً!

***التقلب**

أردنا أن نحصى تقلبات أحد معارفنا فى آرائه العمومية، فوجدنا أنه كان عرابيًا، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب

السجن والشنق لشركائه وأصحابه! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم إلى أعدائه، وصار أكثرهم سفاهة فى الطعن عليه! وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئًا من قصر الدوبارة! كان يتودد إلى أحد أصحاب الجرائد، ويمده بأفكاره وأخباره، ثم قطع كل علاقة به وتحول إلى أشد خصومه! وأخيرًا، اشترك فى تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر! ومن المؤكد أن خاتمة حياته ستكون حميدة؛ لأنه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب إليه بالدعاء والصلاة!

*اللذة الحقيقية

اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب، ولا شيء من الأشياء التى تجرى وراءها الناس عادة، وإنما هى أن يكون الإنسان قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم.

*البلاغة

الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات، فلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد، لأن ذلك يكون حشوًا فى الكلام مستهجنًا، ودليلاً على فقر فى الفكر والخيال، ولكن إذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد، فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن، وقد يكون مطلوبًا إذا

كان لازمًا لتسهيل فهمها أو إظهار الفروق التى بينها . كذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم إذا إلا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذى يعولون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلاً دقيقًا ، أو تشريح الإنسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من أعصابه وسبر غور أحشائه والتسمع على نفسه لإدراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميال والحركات ، وبوصف منظر الشىء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث فى نفس القارئ أو السامع صورة كاملة وشعورًا تامًا وأثرًا باقيًا .

*** جنازة**

ما رأيت جنازة مسلم إلا أخجلنى منظرها . هذه الجمال التى تحمل الفواكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض ، وهذه الجاموسة المسكينة التى يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت ، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضًا وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين ثيابًا قذرة! صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال ، وأحيانًا يطير فى السماء إن كان من الأولياء المقربين!

وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوههن، وعفرن بالتراب رءوسهن، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه بإشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة، ما هذا كله؟ أمجمع مجانين، أم نفر بهم مس من الشياطين؟ ألعوبة أطفال، أم معرض كرنفال؟!

فى الجنازة التى تمر فى الطريق شيء من جميع ذلك، ولا ينقصها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو: إظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون.

* * *

لما كنت فى الآستانة توفى فى الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقًا لبيتنا، فلم أسمع عويلا، ولم نشعر بحركة غير اعتيادية، وفى الضحى خرج النعش ونقل الميت إلى القرافة مشيعا بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلاة على النبى ﷺ بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطئين رءوسهم، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت إلى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم.

* شراهة

دعينا للعشاء عند م. باشا، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب، مسرورين باجتماعنا، مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن التكلف، وبينما نحن متجهون إلى قاعة الطعام إذ دخل علينا زائر

من المشايخ، فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه إلى الأكل معنا، فدخل أمامنا، واختار لنفسه أحسن مكان، وكان أول الجالسين. جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله، ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برما محكما، فانكشف الساعد إلى المرفق، فتمثل لى جالسًا فى مكان من الميضاء يستعد للوضوء! اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث، ولما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط بعضه إلى ملابسه، وكان يلقى العظام على مفرش المائدة، فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه، ويخرج منها فضلات الأكل، فيقذفها من فمه بقوة يمينًا وشمالاً.

وبينما نحن شاخصون إلى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا - آه يا عينى - وقام واضعًا يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت فى عينيه، فتأملنا فلم نجد فيها أثرًا، فضحك وقال: إنها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر!

*** الشكل والجوهر**

كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون، ظنوا أن العيب فى النظام لا فى الرجال. وفكروا فى وضع قواعد جديدة للسياسة والإدارة والقضاء، مؤملين أن يجدوا الإصلاح الكبير.

مثلهم كساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة، فأراد أن

يتخلص منها فغيّر أثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول، تعب ضائع.

❊الرغبة والاستعداد

بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأتي بنفسها كل ما تراني أعمله، فإذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها تقول لي: أنا أيضًا أرفعك، وتمسكني بيديها من أفخاذي وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملني كما حملتها.

وإذا رأت أن رجلا عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل، كذلك الرجل الجاهل؛ يخيل له أنه كفء لأصعب الأعمال، ومستحق لأصعب المناصب، ومساو لأرقى الرجال، يظن أنه منح استعدادا فطريًا، يجعله قديرا على كل شيء، يظن أنه يطيق كل ما يريد.

❊ ❊ ❊

❊ عرس

كنت في ليلة فرح، وكانت الحفلة من أفخم وأجمل ما رأيت من نوعها، أنفق فيها الذهب بلا حساب. وعند العاشرة دخل العروس، وصدحت الموسيقى إعلانًا بذلك، فقلت لصديق كان جالسًا بجانبي: هذا إعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين، كان من حسن الذوق أن يبقى مستورًا. وما أحسن ما اعتاده الغربيون، فإن الزوجين منهم يكونان مع المدعوين إذا بهما

قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد، ويغيبان عدة أسابيع، فوافقني صديقي على ذلك ثم قال: أتريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئا رأيته بعيني؟ قلت: نعم، فقال:

كان سني لا يتجاوز تسع سنين، ولا تزال صورة الواقعة التي سأقصها الآن محفوظة في ذاكرتي كما لو كانت حصلت منذ أسبوع. كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئا فشيئا لحفلة كبيرة، نصبوا من أجلها سرادقًا واسعًا، ووضعوا فيه الكراسي المذهبة، وعلقوا البيارق والنجف، وكل يوم يمر يزيد في رونق الزينة وترتيبها، فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع، وصدحت نغمات الموسيقى، وتقاطرت وفود الرجال والنساء إلى البيت، يدخلون منه أفواجا، فيجلس الرجال في الصيوان، وتختفي النساء في بيت الحريم الذي كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه، ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أوثلاثين طفلا من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعًا، فرحين بهذه المناظر البراقة والأنوار الذهبية والأضواء المنتشرة، نجلس ونقوم ونجري ونضحك ونتشاجر، سكارى من ضوضاء الأصوات وضياء الأنوار.

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة، دخل إلى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من بينهم، فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة بالنساء وهن يتزاحمن للوصول إلى الصف الأول ليشاهدن العروس داخلاً، وكان أحد أقاربه ماشيًا أمامه، فصار يدفعهن بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل

إلى غرفة عروسه، فأدخل فيها وأقفل الباب عليه، وحينئذ وقف النسوة أمام الباب كأنهن يترقبن حادثًا كبيرًا، وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع، ومن حين إلى حين تنادى إحداهن: «هس يا ستات» وتستمر هى فى الكلام أكثر من غيرها. ما الزمن الذى مضى ونحن على هذا الحال! لا أدرى. ثم سمعت صياحًا متكررًا أتى من داخل الغرفة، فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء، وما زال يتضاعف حتى أدى بهن إلى الدق على الباب، وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عارى الرأس بارق العينين محتقن الوجه، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلامًا شديدًا مصحوبًا بإشارات الغضب، ومن وقت لآخر كان يقول: ماذا أصنع.. لا أقدر.. وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت وراءه المرأتان، وتبعه الجيش الذى كان واقفًا وراء الباب مدفوعًا كالسيل، وقد جريت معهم حتى صرت قريبًا من السرير، فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت، وقبضت إحداهما على ذراعيها، والأخرى على فخذيها، فزاد صياح البنت، وبكاؤها، وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء، رأيتها بعد ذلك ملوثة بالدم، فخرجت هاربًا من هذا المنظر الشنيع، لا أشك أنهم ذبحوها!

* التحرر

فى عهد الاستبداد فى الوقت الذى كانت فيه كلمة محمد على أو إسماعيل تكفى لإعدام من يغضب عليه أو إرساله إلى البحر الأبيض، فى تلك الأيام السوداء التى كانت فيها حياة الإنسان

وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه فى الوجود ضمانة تحميه، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بآرائهم.

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم؟ من ينظر نظرًا سطحيًا يظن أننا بلغنا من استقلال الرأى مبلغًا لا ينافسنا فيه أحد، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للخوف من الحكومة، بل يرى بالعكس أن الاستخفاف بها صار عامًا، وأنه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم، اللهم إلا إذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة!

ولكنه إذا حقق النظر لا يلبث أن يرى حرية الانتقاد لم تستعمل إلى الآن فى أعمال الحكومة إلا لأن هذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم.

أما المسائل الأخرى: الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق، فلم يتجه فكر الباحثين إلى انتقادها، فهل لم ير أحد منهم فيها عيبًا ينتقد؟ كلا! وإنما هم يرون العيوب ولا يجرءون على إظهارها.

* المشروعات الخيرية

قال أحد أعيان الأقاليم: فى هذه الأيام كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده

أحد من الأمراء والذوات وكبار الموظفين والأغنياء المقيمين فى العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءاً من مغارمها، يجب على عمد القرى وأعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم، يسمونها جمعية منكوبى المشروعات الخيرية!

* كلما قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها منى صديق أسفت على خسارته وعددته عدواً جديداً.

*** قادتنا**

ليس فى مصر عالم محيط بجميع العلم الإنسانى، وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص فى العلم ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به، ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته، مثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون، والحقيقة المجردة من الأوهام والأغراض أن كل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبى وعلى رغم أهلها.

*** طالب وظيفة**

زارنى أحد أصحابى، وكان يرافقه شاب من أقاربه أتم فى هذه السنة دروسه، وطلب منى أن أتوسط له ليحصل على وظيفة، فمددت يدى إلى هذا الشاب مسروراً، فوضع فيها يداً فاترة

وسحبها بسرعة . أشرت عليه بالجلوس على كرسى فاستحسن أن يجلس على «الكنبا» التى أردت أن أخص قريبه بها ، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد أن تحقق من انتظام ثناياه ، ثم قعد ووضع رجلاً على الأخرى . سألته عن الوظيفة التى يرغبها ، فعلمت أنه يريد أن يعين فى وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيهًا فى الشهر ، فأفهمته أنه يطلب المحال ، وأن لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب ، فلم يقتنع ، وأخذ يقيم الأدلة على أن الحكومة إذا شاءت يمكنها أن تعينه بطريقة استثنائية ، فقلت له : ولكن ما هى المسوغات التى تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذى تطلب أن تتمتع به؟ فقال : كفاءتى ، فقطعت عليه الكلام ، وكررت له أن طلبه غير مقبول ، فحول وجهه عنى وأخذ يفتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت إلى وقال : «ممنون ، نهارك سعيد» وخرج ، وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لى بكلمتين ، فلما خرجا سرح فكرى فيما سمعت ورأيت ، وتأملت فى حال هذا الشاب ، ووردت على خاطرى أحوال أخرى وقعت من أمثاله معى ومع غيرى ، أحوال تنذر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير من شبابنا ، تجعلهم صنفًا خاصًا لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضى التى عاشرت كثيرًا من أفرادها ، ولا الشبيبة التى عرفتها فى البلاد الغربية واختلطت بها زمنًا . هذه الواقعة حركت فى نفسى حياتى الماضية ، ومثلت فى ذاكرتى صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد ، وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عما يتحصله الشباب فى هذه الأيام ، وإنما الفرق هو أن الشىء القليل

الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل أنه يحمل كنوز السماوات والأرض .

* * *

* العبقرية

العقل والجنون شيئان متضادان ، ولكن حدودهما متجاورة مختلطة . وفى الحقيقة لا يعرف أحد أين ينتهى العقل وأنى يبتدئ الجنون ، إن كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقل ، فالنبوغ فى المدارك والخيال غالبًا نتيجة اختلال فى هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاظم الرجال المصابين بشذوذ فى الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبيانية أو إفراط معيب فى تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ فى الحواس عن القوانين الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون عنده مخالفًا أو زائدًا عما تشاهد عند متوسطى الحال فى الذكاء والإحساس .

ربما كان الإبداع فى الاختراع والتأليف وما يستلزمه من احتقان المخ وإشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الأعصاب والجهد فى توليد المعانى من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذى يجعل النابغة إنسانًا غريبًا زائدًا من جهة وناقصًا من جهة أخرى .

* * *

معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر .

*** مصطفى كامل**

١١ فبراير سنة ١٩٠٨، يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى.

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبًا مجروحًا، وزورًا مخنوقًا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشىء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة يائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل المدينة.

ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتومًا فى النفوس، لم يجد سبيلاً يخرج منه، فلم يبرز بروزًا واضحًا حتى يراه كل إنسان.

أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعًا فى قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سُمع دويها فى العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل!

المصــادر

- الزركلي : (الأعلام)، طبعة بيروت .

- سركيس : (معجم المطبوعـات العربية والمعربة)، طبعة القاهرة ١٩٢٨ .

- الطهطاوى : (الأعمـال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٣ .

- قاسم أمين : (الأعمـال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة ، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٦ .

- كحالة : (معجم المؤلفين) طبعة دمشق .

- الكواكبى : (الأعمـال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٥ .

- محمد حسين هيكل (دكتور) : (تراجم مصرية وغربية)، طبعة القاهرة، مطبعة مصر، بدون تاريخ .

- محمد عبده (الأستاذ الإمام) : (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق : الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٢ .

- محمد فؤاد عبد الباقى : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، طبعة دار الشعب، القاهرة .

- المعرى (أبو العلاء) : (لزوم ما لا يلزم) تحقيق : أمين عبد العزيز الخانجى، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤ .

- الموسوعة العربية الميسرة : طبعة القاهرة، الثانية .

- إن الخلاف شديد حول قاسم أمين؟!..

- هل هو «نافذة للتغريب» هبّت منها رياح «التحلل» على عالم المرأة المسلمة؟!..

- أم هو بطل التحرير للمرأة من «أغلال عصر الحريم»؟!

- ثم.. ماذا عن رأيه في «التمدن الإسلامي»؟!... وهي صفحة في فكره، يجهلها الكثيرون؟!..

- إنها - إذن - قراءة جديدة، ومثيرة لقاسم أمين يقدمها هذا الكتاب.

دار الشروق
www.shorouk.com